تفسير سورة إبراهيم

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ
إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ
وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا
عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ
٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن
يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ
وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥ وَإِذۡ
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ
نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ
لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ
إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾

MOSTAFAADAWY.COM

[إبراهيم: ١-٨٠]

MOSTAFAALADWY.COM

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ - ٱلنُّورِ - بِإِذْنِ رَبِّهِمْ - صِرَٰطِ - ٱلْحَمِيدِ - يَسْتَحِبُّونَ - وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ - وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا - ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ - بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ - فَيُضِلُّ - بِـَٔايَٰتِنَآ - بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ - صَبَّارٍ - شَكُورٍ - يَسُومُونَكُمْ - سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ - وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ - بَلَآءٌ - تَأَذَّنَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾	الكفر والضلالة والشك والارتياب.
﴿ٱلنُّورِ﴾	الإيمان والهدى واليقين والحق.
﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾	بأمر ربهم - بتوفيق ربهم.
﴿صِرَٰطِ﴾	طريق.
﴿ٱلْحَمِيدِ﴾	المحمود على نعمه وإحسانه.
﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾	يؤثرون - يفضلون.
﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	يصرفون الناس عن الطريق الموصل إلى جنة الله ورضوانه.
﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾	يريدونها طرقًا معوجة لا توصل إلى مرضاة الله، ويحرفون ويبدلون كذبًا وزورًا وغشًّا وتضليلًا.
﴿ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾	ذهاب بعيد عن طريق الحق.
﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾	بلغة قومه.

mostafalaw.com

﴿فَيُضِلُّ﴾	فيصرف عن الحق.
﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾	بحججنا وأدلتنا على قدرتنا ووحدانيتنا.
﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾	بنعم الله، وقيل: بأيام العقوبات التي مرَّت بهم.
﴿صَبَّارٍ﴾	كثير الصبر على أقدار الله وعلى أوامره واجتناب نواهيه.
﴿شَكُورٍ﴾	كثير الشكر لله ﷻ.
﴿يَسُومُونَكُمْ﴾	يذيقونكم.
﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾	أسوأ صور العذاب.
﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾	يتركون نساءكم أحياء (للامتهان والاستخدام والإذلال).
﴿بَلَآءٌ﴾	اختبار.
﴿تَأَذَّنَ﴾	أَعْلَم وأخبر.

❃ ❃ ❃

MOSTAFAALADWY.COM

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: أن ألف ولام وراء أحرفٌ منها كتاب أنزلناه إليك يا رسول الله، لا يستطيعون الإتيان بمثله، أنزلناه إليك لتخرج الناس من ظلمات الكفر والضلال والشك والارتياب إلى نور الإيمان والهدى واليقين بتوفيق الله لهم إذا أراد الله لهم التوفيق فها أنت قد بينت لهم وأوضحت لهم الطريقين طريق النور والهدى وطريق الغي والضلال، والموفق منهم من وفقه الله، أنزلناه إليك لتخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى طريق الله ﷻ العزيز الذي لا يُغلب ولا يعجز عن شيء يريده المحمود على خصاله وآلائه ونعمه وإحسانه لتهديهم إلى طريق الله الذي له مُلك ما في السموات وما في الأرض يفعل فيها ما يشاء ويقضي ويأمر فيهما بما يريد وويل للجاحدين وحدانية الله، الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، المنكرين لنعمه، ويلٌ له، عذاب شديد لهم، وادٍ في جهنم لهم يوم القيامة.

ويلٌ لهؤلاء الذين يؤثرون الحياة الدنيا ويقدمونها على الآخرة، فيختارون الكفر والمعاصي والشهوات ويقدمونها على طاعة الله ﷻ وعلى مرضاته ويصرفون الناس عن طاعة الله وعن الطريق الموصل لجنته ومرضاته ويريدون للناس الطرق المعوجة التي لا توصل إلى جنة الله ومرضاته، فهؤلاء الذين هذا شأنهم في ذهاب بعيد عن الحق والصواب، هم في واد وطريق، والحق والصواب في وادٍ وطريق آخر.

MOSTAFAALADWY.COM

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: (كتاب أنزلناه إليك) فإن معناه: هذا كتاب أنزلناه إليك، يا محمد، يعني القرآن= (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) يقول: لتهديهم به من ظلمات الضلالة والكفرِ، إلى نور الإيمان وضيائه، وتُبصِّر به أهلَ الجهل والعمَى سُبُل الرَّشاد والهُدَى. (٢)

وقوله: (بإذن ربهم) يعني: بتوفيق ربهم لهم بذلك ولطفه بهم (٣) = (إلى صراط العزيز الحميد) يعني: إلى طريق الله المستقيم، وهو دينه الذي ارتضاه، وشَرَعُه لخلقه.

و (الحميد) ، "فعيل"، صُرِف من "مفعول" إلى " فَعيل"، ومعناه: المحمود بآلائه. (١)

وأضاف تعالى ذكره إخراجَ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم لهم بذلك، إلى نبيه صلى الله عليه وسلم، وهو الهادي خَلْقَه، والموفقُ من أحبَّ منهم للإيمان، إذ كان منه دعاؤهم إليه، وتعريفُهُم ما لهم فيه وعليهم. فبيّنٌ بذلك صِحة قولِ أهل الإثبات الذين أضافوا أفعال العباد إليهم كَسبًا، وإلى الله جل ثناؤه إنشاءً وتدبيرًا، وفسادُ قول أهل القَدر الذين أنكرُوا أن يكون لله في ذلك صُنْعٌ.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قال: (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور)، أي من الضلالة إلى الهدى.

وقال في تأويل قوله عز ذكره: {اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) } .

قال أبو جعفر: اختلفت القرأة في قراءة ذلك.

فقرأته عامة قَرأة المدينة والشأم: " اللهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السماوات" برفع اسم "الله" على الابتداء، وتصيير قوله: (الذي له ما في السماوات) ،خبرَه.

وقرأته عامة قرأة أهل العراق والكوفة والبصرة: (اللهِ الَّذِي) بخفض اسم الله على إتباع ذلك (العزيزِ الحميدِ) ، وهما خفضٌ.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك عندي، أنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما أئمة من القُرّاء، معناهما واحدٌ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

ومعنى قوله: (اللهِ الذي له ما في السماوات وما في الأرض) اللهِ الذي يملك جميع ما في السماوات ومَا في الأرض.

يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أنزلنا إليك هذا الكتاب لتدعُوَ عِبادي إلى عِبَادة مَنْ هذه صفته، وَيدعُوا عبادَةَ من لا يملك لهم ولا لنفسه ضَرًّا ولا نفعًا من الآلهة والأوثان. ثم توعّد جل ثناؤه من كفر به، ولم يستجب لدعاء رسوله إلى ما دعاه إليه من إخلاص التوحيد له فقال: (وويْلٌ للكافرين من عذاب شديد) يقول: الوادِي الذي يسيلُ من صديد أهل جهنم، لمن جحد وحدانيته، وعبد معه غيره، مِن عَذَاب الله الشَّدِيد. (٢)

يعني جل ثناؤه بقوله: (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) ، الذين يختارون الحياة الدنيا ومتاعها ومعاصي الله فيها، على طاعة الله وما يقرِّبهم إلى رضاه من الأعمال النافعة في الآخرة (١) = (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) ، يقول: ويمنعون من أراد الإيمان بالله واتّباعَ رسوله على ما جاء به من عند الله، من الإيمان به واتباعه (٢) = (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) يقول: ويلتمسون سَبِيل الله = وهي دينه الذي ابتعث به رسوله = (عوجًا) : تحريفًا وتبديلا بالكذب والزّور.

"والعِوَج" بكسر العين وفتح الواو، في الدين والأرض وكل ما لم يكن قائمًا، فأما في كلِّ ما كان قائمًا، كالحائط والرمح والسنّ، فإنه يقال بفتح العين والواو جميعًا "عَوَج". (٤)

ويقول الله عز ذكره: (أولئك في ضلال بعيد) يعني هؤلاء الكافرين الذين يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة. يقول: هم في ذهابٍ عن الحق بعيد، وأخذ على غير هُدًى، وجَوْر عن قَصْد السبيل.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

{كتاب أنزلناه إليك} أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم (١).

{لتخرج الناس من الظلمات إلى النور} أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات} الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: {هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور} [الحديد: ٩].

وقوله: {بإذن ربهم} أي: هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم {إلى صراط العزيز} أي: العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، "الحميد" أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره.

وقوله: {الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض} قرأه بعضهم

مستأنفا مرفوعا، وقرأه آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كما قال تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض} [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: {وويل للكافرين من عذاب شديد} أي: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك.

ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي: يقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، {ويصدون عن سبيل الله} وهي اتباع الرسل {ويبغونها عوجا} أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة عائلة (١) وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم (٢) في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم -والحالة هذه- صلاح.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (الر كتاب أنزلناه إليك) تقدم معناه. (لتخرج الناس) أي بالكتاب، وهو القرآن، أي بدعائك إليه. (من الظلمات إلى النور) أي من ظلمات الكفر الضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وهذا على التمثيل، لأن الكفر بمنزلة الظلمة، والإسلام بمنزلة النور. وقيل: من البدعة إلى السنة، ومن الشك إلى اليقين، والمعنى متقارب. (بإذن ربهم) أي بتوفيقه إياهم ولطفه بهم، والباء في" بإذن ربهم" متعلقة ب" لتخرج" وأضيف الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعي والمنذر الهادي. (إلى صراط العزيز الحميد) هو كقولك: خرجت إلى زيد العاقل الفاضل من غير واو، لأنهما شي واحد، والله هو العزيز الذي لا مثل له ولا شبيه. وقيل:" العزيز" الذي لا

يغلبه غالب. وقيل:" العزيز" المنيع في ملكه وسلطانه." الحميد" أي المحمود بكل لسان، والممجد في كل مكان على كل حال.

❁ ❁ ❁

إرسال الرسل بلسان قومها ومخاطبة الناس بما يفهمون

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وما أرسلنا من رسولٍ إلى قوم إلا وهو يتكلم بلغتهم حتى يفهموا عنه مقاله ويعقلون عنه مراده ليدلهم ويرشدهم ويوضح لهم، ولكن الهداية من عند الله فيضل الله من يشاء أن يضله ويهدي من يشاء أن يهديه، وهم أعلم بخلقه إذ أضلهم وإذ هداهم وهو العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء الحكيم فيما يشرع وفي كل شيء يصنعه.

هذا ولا حجة للعجم في الآية الكريمة؛ لأن القرآن تُرجم لهم ووضح لهم، ثم إن هناك من الأدلة ما يفيد عموم بعثته ﷺ، وقدمت ذكرها، منها قوله تعالى: ﴿﴾، وقوله تعالى: ﴿﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما أرسلنا إلى أمة من الأمم، يا محمد، من قبلك ومن قبلِ قومك، رسولا إلا بلسان الأمة التي أرسلناه إليها ولغتهم = (ليبين لهم) يقول: ليفهمهم ما أرسله الله به إليهم من أمره ونَهيه، ليُثْبت حجة الله عليهم، ثم التوفيقُ والخذلانُ بيد الله، فيخذُل عن قبول ما أتاه به رسُوله من عنده من شاء منهم، ويوفّق لقبوله من شاء = ولذلك رفع "فيُضلُّ"، لأنه أريد به الابتداء لا العطف على ما قبله، كما قيل: (لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ) [سورة

الحج: ٥] = (وهو العزيز) (٣) الذي لا يمتنع مما أراده من ضلال أو هداية من أرادَ ذلك به = (الحكيم)، في توفيقه للإيمان من وفَّقه له، وهدايته له من هداه إليه، وفي إضلاله من أضلّ عنه، وفي غير ذلك من تدبيره.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)، أي بلغة قومه ما كانت. قال الله عز وجلّ: (ليبين لهم) الذي أرسل إليهم، ليتخذ بذلك الحجة. قال الله عز وجلّ: (فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلا (٣) منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم.

ثم قال:

وقوله: {فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء} أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، {وهو العزيز} الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، {الحكيم} في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك.

وقد كانت هذه سنة الله في خلقه: أنه ما بعث نبيا في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعطَهُن أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وأحلّت لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ**

MOSTAFAALADWY.COM

يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[١].

وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا} [الأعراف: ١٥٨].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول) أي قبلك يا محمد (إلا بلسان قومه) أي بلغتهم، ليبينوا لهم أمر دينهم، ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة، فهي اسم جنس يقع على القليل والكثير، ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية، لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة يفهمها لزمته الحجة، وقد قال الله تعالى:" وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا" «٢» [سبأ: ٢٨].

وَقَالَ ﷺ: «أُرْسِلَ كُلُّ نَبِيٍّ إِلَى أُمَّتِهِ بِلِسَانِهَا وَأَرْسَلَنِي اللهُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ مِنْ خَلْقِهِ». وَقَالَ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[٢].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولا {إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه وقامت عليهم حجة الله {فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ} ممن لم ينقد للهدى، ويهدي من يشاء ممن اختصه

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

(٢) مسلم (١٥٣).

برحمته.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الذي -من عزته- أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبيين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم وصارت طبيعة لهم فحينئذ قد اكتفوا المؤنة، وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} الآية، بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لم يرسل رسولاً إلا بلغة قومه؛ لأنه لم يرسل رسولاً إلا إلى قومه دون غيرهم، ولكنه بين في مواضع أخر أن نبينا صلى الله عليه وسلم أرسل إلى جميع الخلائق دون اختصاص بقومه ولا بغيرهم، كقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً} [٧/ ١٥٨]، وقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً} [٢٥/ ١]، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ} الآية [٣٤/ ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم رسالته لأهل كل لسان.

❁ ❁ ❁

شيءٌ من ذِكر موسى عليه السلام مع قومه

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾.

ج: هذا - والله أعلم-: تذكيرٌ لرسول الله ﷺ بنبي الله وكليمه موسى عليه السلام، يقول تعالى ما حاصله وكما أنا أنزلنا إليك الكتاب لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، فقد أرسلنا موسى أيضًا عليه السلام بحججنا وأدلتنا على وحدانيتنا وقدرتنا كالعصا واليد وسائر الآيات التسع، وكذلك أنزلنا عليه التوراة والألواح وأمرناه أن يدل قومه على طريق الهداية والتوفيق لإخراجهم من ظلمات الكفر والشك والضلال إلى طريق الهداية والنور والإيمان، وأمرناه أن يُذكرهم بأيام الله، أي: بنعم الله عز وجل وفضائله التي أنعم بها عليهم، كما في الحديث...وأيام الله نعماؤه وبلاؤه، وكان من نعم الله عليهم أن الله عز وجل انجاهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب - على ما سيأتي بيانه عن إن شاء الله-، وكان من نعم الله عليهم تظليل الغمام عليهم، وإنزال التوراة والألواح لهدايتهم وإنزال المن والسلوى عليهم، وكذا تفجير الحجر لهم إلى غير ذلك من نعم الله عز وجل.

هذا، وقد قال بعض العلماء إن أيام الله، أيام العذاب التي كانوا يعذبون فيها من فرعون وقومه.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: في ذلك الإنجاء من العذاب، وفي تلك النعم، وفي إرسال موسى عليه السلام لدلالات على قدرة الله عز وجل ووحدانيته لكل صبار على أقدار الله عز وجل وعلى أوامره، ولكل شكور لله عز وجل على نعمائه، وهذا حال المؤمن دائمًا صبار على المصائب والبلايا، شكور للنعم والآلاء. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا موسى بأدلتنا وحُجَجنا من قبلك،،، يا محمد،، كما أرسلناك إلى قومك بمثلها من الأدلة والحجج.

وقوله: (أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) ،كما أنزلنا إليك، يا محمد، هذا الكتاب لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. ويعني بقوله: (أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) ، أن ادعهم، (١) من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان.

وقوله: (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ) يقول عز وجلّ: وعِظْهُم بما سلف من نُعْمَى عليهم في الأيام التي خلت= فاجتُزِئ بذكر "الأيام" من ذكر النعم التي عناها، لأنها أيام كانت معلومة عندهم، أنعم الله عليهم فيها نعمًا جليلةً، أنقذهم فيها من آل فرعون بعدَ ما كانوا فيما كانوا [فيه] من العذاب المُهِين، وغرَّق عدوَّهم فرعونَ وقومَه، وأوْرَثهم أرضهم وديارَهم وأموالَهم.

وكان بعض أهل العربية يقول: معناه: خوِّفهم بما نزل بعادٍ وثمودَ وأشباههم من العذاب، وبالعفو عن الآخرين: قال: وهو في المعنى كقولك: "خُذْهم بالشدة واللين".

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: (وذكرهم بأيام الله) قال: بنعم الله.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد في قول الله: (وذكرهم بأيام الله) قال: أيامُه التي انتقم فيها من أهل مَعاصيه من الأمم خَوَّفهم بها، وحذَّرهم إياها، وذكَّرهم أن يصيبهم ما أصابَ الذين من قبلهم.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) ، يقول: إن في الأيام التي سلفت بنِعَمِي عليهم = يعني على قوم موسى= (لآيات) ، يعني: لعِبرًا ومواعظ (١) =

(لكل صبار شكور) ،: يقول: لكل ذي صبر على طاعة الله، وشكرٍ له على ما أنعم عليه من نِعَمه. (٢)

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى في بني إسرائيل بآياتنا.

قال مجاهد: وهي التسع الآيات.

{أن أخرج قومك من الظلمات} أي: أمرناه قائلين له: {أخرج قومك من الظلمات إلى النور} أي: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

{وذكرهم بأيام الله} أي: بأياديه ونعمه عليهم، في إخراجه إياهم من أسر فرعون.

وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد.

قلت: وأخرج مسلم [(١)] من حديث أُبي بن كعب مرفوعًا.. أيام الله نعماؤه وبلاؤه.

وقوله: {إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور} أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة لكل صبار، أي: في الضراء، شكور، أي: في السراء، كما

(١) مسلم (٢٣٨٠).

MOSTAFAALADWY.COM

قال قتادة: نعم العبد، عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر.

وَكَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ (١) عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّه عَجَب، لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكر فَكَانَ خيرا له».

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: واذكر يا روسل الله قول موسى عليه السلام لقومه من بني إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم، التي منها أنه عز وجل انجاكم من آل فرعون الذين كانوا يذيقونم أسوأ صور العذاب، بتسخيركم وإذلالكم واستعبادكم، وكانوا يذبحون أبناءكم ويتركون نساءكم لإذلاكم ولاستخدامهن، وفي ذلك الإنجاء من هذا العذاب اختبار من الله عظيم، هل تقدموا له شكرًا أم تكفرونه، فقد يكون الابتلاء بالخير وقد يكون بالشر، قال تعالى: ﴿﴾، وقال تعالى: ﴿﴾.

وقال بعض العلماء، وفي ذلك الذي كان يفعله فرعون بكم بلاء من ربكم عظيم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: واذكر، يا محمد، إذ قال موسى بن عمْران لقومه من بني إسرائيل: (اذكروا نعمة الله عليكم)، التي

(١) مسلم (٢٩٩٩).

أنعم بها عليكم = (إذ أنجاكم من آل فرعون) ، يقول: حين أنجاكم من أهل دين فرعون وطاعته (١) = (يسومونكم سوء العذاب) ، أي يذيقونكم شديدَ العذاب (١) (ويذبحون أبناءكم) ، مع إذاقتهم إياكم شديد العذاب [يذبحون] أبناءكم. (٢)

وأدْخلت الواو في هذا الموضع، لأنه أريد بقوله: (ويذبحون أبناءكم) ، الخبرُ عن أن آل فرعون كانوا يعذبون بني إسرائيل بأنواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح. وأما في موضع آخر من القرآن، فإنه جاء بغير الواو: (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) [سورة البقرة: ٤٩] ، في موضع، وفي موضع (يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ) [سورة الأعراف: ١٤١] ، ولم تدخل الواو في المواضع التي لم تدخل فيها لأنه أريد بقوله: (يذبحون) ، وبقوله: (يقتلون) ، تبيينه صفات العذاب الذي كانوا يسومونهم. وكذلك العملُ في كل جملة أريد تفصيلُها،فبغير الواو تفصيلها، وإذا أريد العطف عليها بغيرها وغير تفصيلها فبالواو.

وقوله: (ويستحيون نساءكم) ، يقول: ويُبقون نساءكم فيتركون قتلهن، وذلك استحياؤهم كَان إياهُنَّ.

(وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) ، يقول تعالى: وفيما يصنعُ بكم آلُ فرعون من أنواع العذاب، بلاءٌ لكم من ربكم عظيمٌ، أي ابتلاء واختبارٌ لكم، من ربكم عظيم. (٤) وقد يكون "البلاء"، في هذا الموضع نَعْماء، ويكون: من البلاء الذي يصيب النَّاس من الشدائد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرا عن موسى، حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه

عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين (١) كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: {وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم} أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها.

وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل {بلاء} أي: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: {وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون} [الأعراف: ١٦٨] .

❁ ❁ ❁

الشكر سبب لزيادة النعم والكفر سبب لزوالها

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾.

ج: إيضاحه – والله أعلم –: واذكر إذا أعلم الله ﷻ وأخبر عباده لئن شكرتم نعمي عليكم لأزيدنكم، ولئن جحدتموها وكفرتم بها فاعلموا أن عذابي شديد لمن كفر نعمائي وجحدها هذا، وللعلماء أقوال في النعم وأقوال في الزيادة فمنها لئن شكرتم نعمي عليكم بإرسالي رسول إليكم فآمنتم به ومنها: لئن شكرتم نعمي بصفة عامة كنعمة الإسلام والصحة والعافية، وسعة الرزق والمال والبنين وغير ذلك، وهذا الأخير أعمَّ وأشمل.

أما قوله تعالى: ﴿﴾، قيل: من نعمي عليكم بتوفيقكم إلى مزيد من الطاعة والإيمان، وقيل: لأزيدنكم من عموم نعمي من الإيمان وسعة الأرزاق وسلامة الأبدان وكثرة الأولاد وغير ذلك من صور النعم، والله أعلم.

MOSTAFAALADWY.COM

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: واذكروا أيضًا حين آذنكم رَبُّكم.

= و"تأذن"، "تفعَّل" من "آذن". والعرب ربما وضعت "تفعَّل" موضع "أفعل"، كما قالوا: " أوعدتُه " "وتَوعَّدته"، بمعنى واحد. و"آذن"، أعلم، (١) كما قال الحارث بن حِلِّزة:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

يعني بقوله: "آذنتنا"، أعلمتنا.

وقوله: (لئن شكرتم لأزيدنكم)، يقول: لئن شكرتم ربَّكم، بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم، لأزيدنكم في أياديه عندكم ونعمهِ عليكم، على ما قد أعطاكم من النجاة من آل فرعون والخلاص مِنْ عذابهم.

وأورد قولًا في تفسير قوله: ﴿﴾ أي: من طاعتي.

وقوله: (ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)، يقول: ولئن كفرتم، أيها القوم، نعمةَ الله، فجحدتموها بتركِ شكره عليها وخلافِه في أمره ونهيه، وركوبكم معاصيه = (إن عَذَابي لشديد)، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: {وإذ تأذن ربكم} أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال: {وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة [من يسومهم سوء العذاب] (٢) } [الأعراف: ١٦٧].

وقوله (٣) {لئن شكرتم لأزيدنكم} (٤) أي: لئن شكرتم نعمتي (٥)

عليكم لأزيدنكم منها، {ولئن كفرتم} أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، {إن عذابي لشديد} وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

وفي قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: لئن شكرتم نِعَمي لأزيدنكم من طاعتي، قاله الحسن.

والثاني: لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي، قاله الربيع.

والثالث: لئن وحَّدتموني لأزيدنكم خيرًا في الدنيا، قاله مقاتل.

وفي قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ قولان.

أحدهما: أنه كفر بالتوحيد.

والثاني: كفران النِّعَم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني عن خَلْقه، محمود في أفعاله، لأنه إِمّا متفضِّل بفعله، أو عادل.

❁ ❁ ❁

دفع إشكال

س: كيف الجواب عما قد يستشكل على البعض بأن هناك من يشكر النعم ومع ذلك فيبتلى ويقل رزقه، وهناك من يكفر ويجحد ويعصي ويُزاد رزقه؟

ج: لأهل العلم أقوال في قوله: ﴿﴾، وفي تفسير الزيادة هنا منها ما يلي:

أولا: أن الزيادة في طاعة الله والإيمان به.

ثانيًا: أن الزيادة كائنة ولا بد إما في الدنيا وإلا في الآخرة، وكم من شخص يُدخر له ثوابه على الآخرة.

MOSTAFALABIB.COM

ثالثًا: أن الزيادة قد تتمثل في صرف السوء والمكروه عن الشخص، فمثلًا قد يكون الشخص سيُبتلى في أهله وماله بخسارة أو بهلاك فبشكره للنعم يُصرف عنه السوء والمكروه فيكون قد ازداد من حيث لا يشعر.

رابعًا: أن الزيادة قد تتمثل في رضا العبد بما أعطاه الله ومن ثم في انشراح في الصدر.

أما كون الكافر يعصى ويُزاد من النعم أحيانًا فلذلك وجوهٌ:

أحدها: أن هذا استدراج كالذي يصعد السلم درجة درجة ثم يبلغ أعلاه فإذا به يسقط متهشمًا مُدمرًا، قال تعالى: ﴿﴾.

الثاني: أن هذا العذاب قد يتأتى للكافر في الدنيا بزوال النعم عنه، وإحلال الأمراض والبلاءات به.

الثالث: أنه قد يُدخر له العذاب الشديد للآخرة.

الرابع: أنه قد ينعم عليه بالمال ومع ذلك يكون المال سببًا في نكده وتعاسته وبلائه.

الخامس: أنه يُنعم عليه ومع ذلك فهو ساخط والنعم في عينه قليلة، وعلى كلٍّ فالله أصدق القائلين ووعده لا يتخلف عزَّ ذِكره وجل جلاله، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

صور شكر النعم

س: ما صور شكر النعم؟

ج: شكر النعم يتمثل في حمد الله ﷻ عليها باللسان، وفي شكرها بالقلب، وفي العمل بمقتضى هذا الشكر، عمل بالجوارح والأبدان في طاعة الله وإيصال الخير للعباد كما قال القائل:

MOSTAFAADAWY.COM

أفـــادتكم النعمـــاء منـــي ثلاثـــةً يـــدي ولســـاني والضـــمير المُحجبـــا

والله أعلم.

❁ ❁ ❁

غنى الله ﷻ عن خلقه

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وقال موسى عليه السلام لقومه إن تكفروا بالله وتجحدوا نعمه ووحدانيته أنتم كلكم ومن الأرض كلهم جميعًا فإنكم لن تضروا الله شيئًا بكفركم فالله ﷻ غنيٌّ عن عباده، وهو المنعم عليهم المحمود على نعمائه.

وقد ورد الحديث القدسي بذلك: «لَو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقص ذَلِكَ مِن مُلْكِي شَيئًا»(١).

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وقال موسى لقومه: إن تكفروا، أيها القوم، فتجحدوا نعمةَ الله التي أنعمها عليكم، أنتم = ويفعل في ذلك مثل فعلكم مَنْ في الأرض جميعًا = (فإن الله لغني) عنكم وعنهم من جميع خلقه، لا حاجة به إلى شكركم إياه على نعمه عند جميعكم (٣) (حميد)، ذُو حمد إلى خلقه بما أنعم به عليهم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

وقوله تعالى: {وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد} أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كفره من كفره، كما قال: {إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم} [الزمر: ٧] وقال تعالى: {فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد} [التغابن: ٦].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١)، عَنْ أَبِي ذَرٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فيما يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فِي الْبَحْرِ». فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

❁ ❁ ❁

(١) مسلم (٢٥٧٧).

MOSTAFAALADWY.COM

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ
مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا
كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن
نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ
لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١
وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ
ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ
لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ
مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن
وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ

وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ٩-٢٠].

MOSTAFAALADAWY.COM

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿نَبَؤُاْ - بِٱلۡبَيِّنَٰتِ - فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ - كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ - مُرِيبٍ - فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ - أَجَلٖ مُّسَمّٗى - تَصُدُّونَا - بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ - يَمُنُّ - بِإِذۡنِ ٱللَّهِ - فَلۡيَتَوَكَّلِ - هَدَىٰنَا سُبُلَنَا - مِلَّتِنَاۖ - خَافَ مَقَامِي - وَخَافَ وَعِيدِ - وَٱسۡتَفۡتَحُواْ - وَخَابَ - جَبَّارٍ - عَنِيدٖ - مِّن وَرَآئِهِۦ - مَّآءٖ صَدِيدٖ - يَتَجَرَّعُهُۥ - يُسِيغُهُۥ - وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ - وَمِن وَرَآئِهِۦ - غَلِيظٞ - لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ - يَوۡمٍ عَاصِفٖ - ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ - بِٱلۡحَقِّ - بِعَزِيزٖ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿نَبَؤُاْ﴾	خبر.
﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾	بالحجج الواضحات والمعجزات الظاهرات الباهرات والدلائل النيرات.
﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾	قيل: المراد أن أهل الكفر وضعوا أيديهم في أفواههم تغيظًا على الرسل كما قال تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ [آل عمران: ١١٩]. وقيل: وضعوها على الأفواه سخرية واستهزاء، وقيل: ردوا على الرسل أقوالها.
﴿كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾	جحدنا ما أرسلتم به وأنكرناه، أنكرنا التوحيد الذي جئتمونا به، وأنكرنا التب التي تقولون إنها نزلت من عند الله.

MOSTAFAALADWY.COM

﴿مُرِيبٖ﴾	مُحيِّر – يستدعي الريبة ويثير الشكوك.
﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾	خالقهما على غير مثال سابق.
﴿أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾	وقت محدد.
﴿تَصُدُّونَا﴾	تصرفونا.
﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾	بحجة واضحة ظاهرة.
﴿يَمُنُّ﴾	يتفضل.
﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾	بأمر الله.
﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾	فليعتمد.
﴿هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾	وفقنا لسلوك السبل المقربة إليه.
﴿مِلَّتِنَا﴾	عقيدتنا – ديننا.
﴿خَافَ مَقَامِي﴾	خاف يومًا يقوم فيه بين يدي – راقبني وخشيتي، وعلم أنني عليه قائم بأموره وشؤونه.
﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾	خاف وعيدي وزجري (بالآيات التي أنزلتها في كتابي).
﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾	طلبوا الفتح وهو القضاء والحكم، وقيل: إنهم الرسل، وقيل: الكفار، ولا يمنع أن يكون الجميع قد استفتح.
﴿وَخَابَ﴾	لم ينل مطلوبه ولم ينج من مرهوبه.
﴿جَبَّارٍ﴾	متكبر على العباد ظالم لهم معتد عليهم.

MOSTAFAALADWY.COM

﴿عَنِيدٍ﴾	معاند للحق.
﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾	من أمامه – في انتظاره.
﴿مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾	ماء حار طعمه طعم القيح والدم ورائحته رائحته.
﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾	يشربه جرعة جرعة.
﴿يُسِيغُهُۥ﴾	يستطعمه ويبتلعه ويستسيغه.
﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾	تأتيه أسباب الموت وصنوف العذاب تحلَّ ولكنه لا يموت.
﴿غَلِيظٌ﴾	شديد.
﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾	لا يمكنهم استرجاع شيء مما عملوه، لا يمكنهم الاستفادة من عمل صالح عملوه.
﴿يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾	يوم ذي رياح عاصفة شديدة الهبوب.
﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾	الانصراف الشديد عن الحق والصواب.
﴿بِٱلْحَقِّ﴾	للحق، كي يستدل بها على قدرة الله ووحدانيته وعلى الثواب والعقاب وعلى البعث بعد الموت.
﴿بِعَزِيزٍ﴾	بممتنع ولا شاق.

❁ ❁ ❁

MOSHAFALARABY.COM

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ألم يأتكم يا معشر قريش، يا أهل الشرك ويا أيها الناس عمومًا خبر الأمم المكذبة من قبلكم التي حلَّ بها من أمر الله ما حلَّ ونزل بها من بلائه ما نزل، وهم قوم نوح إذ أتاهم الطوفان فأغرقهم ﴿﴾ وقوم عادٍ إذ أخذوا بريح صرصرٍ عاتية، وقوم ثمود إذ أخذتهم الصيحة الطاغية الشديدة التي أهلكتهم، وكذا أمم من بعدهم لا يعلمهم إلا الله أفناهم الله وأهلكهم وأبادهم، فهؤلاء جميعًا أرسل الله ﷻ إليهم رسلًا منهم وأيد هؤلاء الرسل بالحجج الواضحات والدلالات الظاهرات على وحدانيته ﷻ، ولكن ما قبلوا من الرسل ذلك بل كذبوهم وعاندوهم وردوا أيديهم في أفواههم عندما أخبرتهم الرسل بوحدانية الله وبأوامره ونواهيه.

ولأهل العلم أقوال في قوله: ﴿﴾:

أحدها: أن أهل الكفر وضعوا أيديهم في أفواههم تغيظًا على الرسل كما قال تعالى: ﴿﴾.

الثاني: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم ساخرين مستهزئين كالذي يضحك ساخرًا ويضع يده على فمه.

الثالث: أن المراد أنهم ردوا على الرسل قولهم ورفضوا ما جاءتهم به رسلهم.

الرابع: أنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل يمنعونهم من الكلام.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فهذا قول الكفار لرسلهم يقولون لهم: إنا جحدنا ما

MOSTAFABADR.COM

أرسلتم به، وأنكرنا ما أرسلتم به ومن ثَمَّ فلن نتبعه، فإذا كنتم تدعوننا إلى عبادة الله وحده لا شريك له فإنا جحدنا ذلك وكفرنا بذلك وأنكرنا ذلك، ثم إننا في شكٍّ محيِّر مما تدعوننا إليه، شك يجلب الرِّيبة والتردد. فلن نؤمن لكم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره، مخبراً عن قيل موسى لقومه: يا قوم (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم) ، يقول: خبر الذين من قبلكم من الأمم التي مضت قبلكم (١) = (قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ)، وقوم نوح مُبَيَّنٌ بهم عن "الذين"، (٢) و"عاد" معطوف بها على "قوم نوح"، = (والذين من بعدهم) ، يعني من بعد قوم نوح وعاد وثمود = (لا يعلمهم إلا الله) ، يقول: لا يحصي عَدَدهم ولا يعلَمُ مبلغهم إلا الله.

وأورد بإسناد صحيح عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون: (وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) ، قال: كذَبَ النسَّابون.

وورد هذا أيضًا عند الطبري بإسنادٍ صحيح عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود.

قلت (مصطفى): والمعنى كذب الذين يدعون علم الأنساب فإن هناك انقطاع بين القرون المذكورة لقوله تعالى: ﴿ ﴾.

وقوله: (جاءتهم رسلهم بالبينات) ، يقول: جاءت هؤلاء الأمم رسلُهم الذين أرسلهم الله إليهم بدعائهم إلى إخلاص العبادة له = "بالبينات"، يعني بحججٍ ودلالاتٍ على حقيقة ما دعوهم إليه من مُعْجِزاتٍ.

وقوله: (فردوا أيديهم في أفواههم) ، اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

MOSTAFAALADWY.COM

فقال بعضهم: معنى ذلك: فعضُّوا على أصابعهم، تغيُّظًا عليهم في دعائهم إياهم إلى ما دَعَوهم إليه.

وأورد بإسناد صحيح عن أبي الأحوص، عن عبد الله: (فردوا أيديهم في أفواههم) ، قال: عضوا عليها تغيُّظًا.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: (فردوا أيديهم في أفواههم) ، فقرأ: " عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ " [سورة آل عمران: ١١٩] ، قال: هذا، (ردُّوا أيديهم في أفواههم) . (٢) قال: أدخلوا أصابعهم في أفواههم. وقال: إذا اغتاظ الإنسان عضَّ يده.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم لما سمعوا كتابَ الله عجبوا منه، ووضعوا أيديهم على أفواههم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم كذبوهم بأفواههم.

وأورد بإسنادٍ صحيح بطريقيه عن قتادة، قوله: (جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم) ، يقول: قومُهم كذّبوا رسلهم وردُّوا عليهم ما جاءوا به من البينات، وردُّوا عليهم بأفواههم، وقالوا: إنا لفي شك مما تَدعوننا إليه مُرِيب.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم كانوا يَضَعُون أيديهم على أفواه الرّسل ردًّا عليهم قولَهم، وتكذيبًا لهم.

وقال آخرون: هذا مَثَلٌ، وإنما أُرِيد أنهم كفُّوا عَمَّا أُمروا بقَوْله من الحق، ولم يؤمنوا به ولم يسلموا. وقال: يقال لِلرَّجل إذا أمسَك عن الجواب فلم يجبْ: " ردّ يده في فمه ". وذكر بعضهم أن العرب تقول: " كلمت فلانًا في حاجة فرَدّ يدَه في فيه"، إذا سكت عنه فلم يجب.

قال أبو جعفر: وهذا أيضًا قول لا وَجْه له، لأن الله عزَّ ذكره، قد أخبر عنهم أنهم قالوا: " إنا كفرنا بما أرسلتم به"، فقد أجابوا بالتكذيب.

قال أبو جعفر: وأشبه هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل هذه الآية، القولُ الذي ذكرناه عن عبد الله بن مسعود: أنهم ردُّوا أيديهم في أفواههم، فعضُّوا عليها، غيظًا على الرسل، كما وصف الله جل وعز به إخوانهم من المنافقين، فقال: (وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ) [سورة آل عمران: ١١٩] . فهذا هو الكلام المعروف والمعنى المفهوم من "ردِّ اليدِ إلى الفم".

وقوله: (وقالوا إنّا كفرنا بمَا أرسلتم به) ، يقول عز وجل: وقالوا لرسلهم: إنا كفرنا بما أرسلكم به مَنْ أرسلكم، من الدعاء إلى ترك عبادة الأوثان والأصنام = (وإنا لفي شك) من حقيقة ما تدعوننا إليه من توحيد الله = (مُريب) ، يقول: يريبنا ذلك الشك، أي يوجب لنا الريبَة والتُّهمَةَ فيه.

يقال منه:" أرابَ الرجل"، إذا أتى بريبة، "يُريبُ إرابةً".

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل (٥) موسى لقومه (٦) .

يعني: وتذكاره إياهم بأيام الله، بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل.

وفيما قال (٧) ابن جرير نظر؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصه عليهم ذلك فلا شك (١) أن تكون هاتان القصتان في "التوراة"، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصي عددهم (٢) إلا الله

عز وجل أتتهم رسلهم بالبينات، أي: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات.

وأورد أقوالًا في تفسير قوله تعالى: ﴿﴾ نحوًا مما ذكره الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثم قال في {إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب} يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عندنا فيه شكا قويا.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم –: جواب رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه، جوابه لأممهم المكذبة الجاحدة، قالوا لأقوامهم أفي الله شك! أفي وحدانية الله شك؟؟ أفي قدرة الله شك؟!!

أفي عبادة الله وحده لا شريك له شك؟!!

وهو فاطر السموات والأرض، خالقهما على غير مثالٍ سابقٍ، يدعوكم إلى توحيده وعبادته وحده لا شريك له ليغفر لكم ذنوبكم التي أسلفتموها وجرائمكم التي ارتكبتموها إن آمنتم وأطعتم، كذا يؤخركم بلا عذاب إلى أن تموتوا بآجالكم التي كتبها الله لكم وحدَّدها لكم؟!!

فقال الأقوام حينئذٍ لأنبيائهم ورسلهم: إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا، ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا، صوركم كصورنا، تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق كما نأكل ومشي، أنتم بشر منا شأنكم شأننا فكيف تدعون أن الله ﷻ أرسلكم إلينا، كلا بل أنتم تريدون فقط أن تصرفونا عن عبادة الأوثان والأصنام التي كان يعبدها

آباؤنا وأسلافنا ولستم برسل من رسل الله، فأتونا بحجة بيِّنة على كونكم رسل، ائتونا بمعجزة تدل على أن الله أرسلكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قالت رُسل الأمم التي أتتها رسُلها: (أفي الله) ، (٢) أنه المستحق عليكم، أيها الناس، الألوهة والعبادةَ دون جميع خلقه = (شك) = وقوله: (فاطر السماوات والأرض) ، يقول: خالق السماوات والأرض (١) (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) ، يقول: يدعوكم إلى توحيده وطاعته = (ليغفر لكم من ذنوبكم) ، يقول: فيستر عليكم بعضَ ذنوبكم بالعفو عنها، فلا يعاقبكم عليها، (٢) (ويؤخركم) ، يقول: وينسئ في آجالكم، (٣) فلا يعاقبكم في العاجل فيهلككم، ولكن يؤخركم إلى الوقت الذي كتبَ في أمّ الكتاب أنه يقبضكم فيه، وهو الأجل الذي سمَّى لكم. (٤) فقالت الأمم لهم: (إن أنتم) ، أيها القوم (إلا بشرٌ مثلنا) ، في الصورة والهيئة، ولستم ملائكة، (٥) وإنما تريدون بقولكم هذا الذي تقولون لنا = (أن تصدُّونا عما كان يعبدُ آباؤنا) ، يقول: إنما تريدون أن تصرِفونا بقولكم عن عبادة ما كان يعبدُه من الأوثان آباؤنا (٦) = (فأتونا بسلطان مبين) ، يقول: فأتونا بحجة على ما تقولون تُبين لنا حقيقتَه وصحتَه، فنعلم أنكم فيما تقولون محقُّون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: {أفي الله شك}

وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة

MOSTAFAALADWY.COM

بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض (١) لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه {فاطر السماوات والأرض} الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث (٢) والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني في قولهم: {أفي الله شك} أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا (٣) يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد (٤) معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

وقالت لهم الرسل: ندعوكم (٥) ليغفر لكم من ذنوبكم، أي: في الدار الآخرة، {ويؤخركم إلى أجل مسمى} أي: في الدنيا، كما قال تعالى: {وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله} الآية [هود: ٣] ، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: {إن أنتم إلا بشر مثلنا} أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولما نر منكم معجزة؟ {فأتونا بسلطان مبين} أي: خارق نقترحه عليكم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (قالت لهم رسلهم) استفهام معناه الإنكار، أي لا شك في الله، أي في توحيده، قال قتادة. وقيل: في طاعته. ويحتمل وجها ثالثا: أفي قدرة الله شك؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها، يدل عليه قوله: (فاطر

السماوات والأرض) خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعد العدم، لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له. (يدعوكم) أي إلى طاعته بالرسل والكتب. (ليغفر لكم من ذنوبكم) قال أبو عبيد:" من" زائدة. وقال سيبويه: هي للتبعيض، ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع.

وقيل:" من" للبدل وليست بزائدة ولا مبعضة، أي لتكون المغفرة بدلا من الذنوب. (ويؤخركم إلى أجل مسمى) يعني الموت، فلا يعذبكم في الدنيا. (قالوا إن أنتم) أي ما أنتم. (إلا بشر مثلنا) في الهيئة والصورة، تأكلون مما نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستم ملائكة. (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) من الأصنام والأوثان (فأتونا بسلطان مبين) أي بحجة ظاهرة، وكان محالا منهم، فإن الرسل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

ج: هذا جواب رسل اله لأقوامهم لما رفضوا الإيمان متعللين بأن رسل الله بشرٌ طالبين معجزةً دالة على نبوتهم، فحينئذٍ أجابتهم الرسل بقولهم ما نحن إلا بشر مثلكم، صدقتكم في كونكم قلتم ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا، فنحن بشر مثلكم، ولكن الله ﷻ يمنُّ ويتفضل على من يشاء من عباده فيرسله رسولًا لخلقه ويوحي إليه.

أما كونكم تطالبوننا بمعجزة، بحجة دالة على أننا رسلٌ من عند الله، فالمعجزات أمرها ليس إلينا، إنما أمرها موكول إلى الله ﷻ فلن نستطيع أن

نـأتيكم بمعجـزة إلا مـن عنـد الله، وبـإذن مـن الله بـذلك وعلـى الله فليعتمـد المؤمنون في كل شيء، يعتمدون عليه في قضاء حوائجهم ومطالبهم، يعتمدون عليه في كشـف الضـر عـنهم، يعتمـدون عليـه لتثبيتهم على الإيمـان، يعتمـدون عليه في كل وقتٍ وحين، وفي كل زمان ومكان وفي كل شأن وحالٍ.

فلذا فإننا سنعتمد على ربنا فنحن به مؤمنون.

وبنح ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قالت الأمم التي أتـتهم الرّسـلُ رُسُـلهم: (١) (إن نحـن إلا بشر مثلكم)، صدقتم في قولكم، إن أنتم إلا بشر مثلنا، فما نحنُ إلا بَشَر مـن بني آدم، إنسٌ مثلكم (٢) = (ولكنّ الله يمنُّ على من يشـاء مـن عبـاده)، يقُـول: ولكن الله يتفضل على من يشاء من خلقه، (٣) فيهديه ويوفقه للحقّ، ويفضّـله على كثير من خلقه = (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان)، يقـول: ومـا كـان لنـا أن نأتيكم بحجة وبرهـان علـى مـا نـدعوكم إليـه (٤) = (إلا بإذن الله)، يقـول: إلا بأمر الله لنا بذلك (٥) = (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)، يقول: وبالله فليثـق بـه من آمن به وأطاعه، فإنا به نثق، وعليه نتوكل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قالت لهم رسلهم: {إن نحـن إلا بشر مثلكـم} أي: صـحيح أنـا بشـر مثلكـم في البشـرية {ولكـن الله يمـن علـى مـن يشـاء مـن عبـاده} أي: بالرسـالة والنبـوة {وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان} على وفـق مـا سـألتم {إلا بـإذن الله} أي: بعـد سؤالنا إياه، وإذنه لنـا في ذلـك، {وعلـى الله فليتوكـل المؤمنـون} أي: في جميـع أمورهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم) أي في الصورة والهيئة كما قلتم. (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) أي يتفضل عليه بالنبوة. وقيل، بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية. وقال سهل بن عبد الله: بتلاوة القرآن وفهم ما فيه.

وقال القرطبي أيضًا:

(وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان) أي بحجة وآية. (إلا بإذن الله) أي بمشيئته، وليس ذلك في قدرتنا، أي لا نستطيع أن نأتي بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته، فلفظه لفظ الخبر، ومعناه النفي، لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ} مجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم: {إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} أي: صحيح وحقيقة أنا بشر مثلكم، {وَلَكِنَّ} ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق فإن {اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله.

فانظروا ما جئناكم به فإن كان حقا فاقبلوه وإن كان غير ذلك فردوه ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: {فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} فإن هذا ليس بأيدينا وليس لنا من الأمر شيء.

{وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ} فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، {وَعَلَى

اللهِ} لا على غيره {فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته وعميم إحسانه، ويثقون به في تيسير ذلك وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أن الرسل قالوا لأقوامهم وما الذي يمنعنا أن نتوكل على الله، وبأي وجه نمتنع من الاعتماد عليه والالتجاء غليه وقد وفقنا للإيمان وهدانا للطرق الموصلة إليه وإلى مرضاته، فليس لنا أي عذرٍ في ترك التوكل عليه، بل نحن على الله متوكلون، ولنصبرن على الأذى الذي تلحقونه بنا من ضرب وسجن وتهديد بالقتل وشتم وغير ذلك من صور الأذى، وعلى الله فليعتمد المعتمدون لقضاء حوائجهم ولكشف الضرِّ عنهم ولحفظهم وفي شؤونهم كلها.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قِيل الرسل لأممها: (وما لنا أن لا نتوكل على الله) ، فنثق به وبكفايته ودفاعه إياكم عنَّا = (وقد هدانا سُبُلنا) ، يقول: وقد بَصَّرنا طريقَ النجاة من عذابه، فبين لنا (١) = (ولنصبرنَّ على ما آذيتمونا) ، في الله وعلى ما نلقى منكم من المكروه فيه بسبب دُعائنا لكم إلى ما ندعوكم إليه، (٢) من البراءة من الأوثان والأصنام، وإخلاص

العبادة له = (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) ، يقول: وعلى الله فليتوكل من كان به واثقًا من خلقه، فأما من كان به كافرًا فإنّ وليَّه الشيطان.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قالت الرسل: {وما لنا ألا نتوكل على الله} أي: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، {ولنصبرن على ما آذيتمونا} أي: من الكلام السيء، والأفعال السخيفة، {وعلى الله فليتوكل المتوكلون}.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: (وما لنا ألا نتوكل على الله) " ما" استفهام في موضع رفع بالابتداء، و" لنا" الخبر، وما بعدها في موضع الحال، التقدير: أي شي لنا في ترك التوكل على الله. (وقد هدانا سبلنا) أي الطريق الذي يوصل إلى رحمته، وينجي من سخطه ونقمته. (ولنصبرن) لام قسم، مجازه: والله لنصبرن (على ما آذيتمونا) به، أي من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا. (وعلى الله فليتوكل المتوكلون).

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

{وَمَا لَنَا أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا} أي: أي شيء يمنعنا من التوكل على الله والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامنا على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

وفي هذا كالإشارة من الرسل عليهم الصلاة والسلام لقومهم بآية عظيمة، وهو أن قومهم -في الغالب- لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدتهم رسلهم بأنهم

MOSTAFAALADWY.COM

متوكلون على الله، في دفع كيدكم ومكركم، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: {يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون} الآيات.

وقول هود عليه السلام قال: {إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون}.

{وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا} أي ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى فإنا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى احتسابا للأجر ونصحا لكم لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير.

{وَعَلَى اللهِ} وحده لا على غيره {فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب وهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره وهداية عبيده وإزالة الضلال عنهم وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم.

❁ ❁ ❁

دومًا الكفار يتهددون
أهل الإيمان بالطرد والإبعاد من البلاد

MOSTAFALABIB.COM

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾.

ج: هذا - والله تعالى أعلم-: إخبارٌ من الله ﷻ يُخبر نبيه ﷺ، ويُخبر من آمنوا به أن من سنة الكفار في كل زمانٍ ومكان توعد الرسل عليهم الصلاة والسلام، بالطرد والإبعاد عن البلاد، فلم يكن الذي يحدث لرسول الله ﷺ ببدع من الفعل، وببدع من القول بل هي سنة مضطردة لأهل الكفر في توعد الأنبياء وأهل الفضل والصلاح فالآية تحمل تثبيتًا وتصبيرًا لرسول الله ﷺ.

يقول تعالى: ﴿﴾، أي: من بلادنا ﴿﴾ ملة الكفر والشرك والعياذ بالله، وهذا كما قال قوم شعيب عليه السلام: ﴿﴾.

وكما قال قوم لوط عليه السلام: ﴿﴾، وكما قال تعالى: ﴿﴾.

وكما قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: «ليتني أكون حيًّا، ليتني أكون فيها جذعًا، إذ يخرجك قومك، فقال ﷺ: «أومُخرجي هم» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي».

فأمام هذه التهديدات بالإخراج من البلاد يثبت الله ﷻ المرسلين، فيقول تعالى ذكره: ﴿﴾ أي: من بعد إهلاكهم، كما قال في شأن بني إسرائيل مع فرعون ﴿﴾.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: خاف يومًا يقوم فيه بين يدي الله ﷻ يسأله ربُّه ﷻ عما صنع، ويحاسبه عما قدم، وقال بعض العلماء: معنى قوله: خاف مقامي راقبني وعلم أنني قائم بأمره أفعل فيه ما أشاء وأقضي فيه بما أريد، كما قال تعالى: ﴿﴾.

MOSTAFAALBADAWI.COM

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: خاف تحذيري إذ حذرته في كتابي الذي أنزلته على رسولي، حذرته بالنار إذ هو عصاني وخالف أمري.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول عزّ ذكره: وقال الذين كفروا بالله لرسلهم الذين أرسلوا إليهم، حين دعوهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وفراق عبادة الآلهة والأوثان (لنخرجنَّكم من أرضنا) ، يعنون: من بلادنا فنطردكم عنها = (أو لتعودن في مِلّتنا) ، يعنون: إلا أن تَعُودوا في ديننا الذي نحن عليه من عبادة الأصنام.

وأدخلت في قوله: (لتعودُنَّ) "لام"، وهو في معنى شرطٍ، كأنه جواب لليَمين، وإنما معنى الكلام: لنخرجَنكم من أرضنا، أو تعودون في ملتنا.

وقوله: (فأوحَى إليهم ربُّهم لنُهلكنَّ الظالمين) ، الذين ظلموا أنفسهم، (١) فأوجبوا لها عقاب الله بكفرهم. وقد يجوز أن يكون قيل لهم: "الظالمون" لعبادتهم من لا تجوز عبادته من الأوثان والآلهة، (٢) فيكون بوضعهم العبادةَ في غير موضعها، إذ كان ظلمًا، سُمُّوا بذلك.

وقوله: (ولنسكننكم الأرض من بعدهم) ، هذا وعدٌ من الله مَنْ وَعد من أنبيائه النصرَ على الكَفَرة به من قومه. يقول: لما تمادتْ أمم الرسل في الكفر، وتوعَّدوا رسُلهم بالوقوع بهم، أوحى الله إليهم بإهلاك من كَفَر بهم من أممهم ووعدهم النصر. وكلُّ ذلك كان من الله وعيدًا وتهدُّدا لمشركي قوم نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم على كفرهم به، (٤) وجُرْأتهم على نبيه، وتثبيتًا لمحمد صلى الله عليه وسلم، وأمرًا له بالصبر على ما لقي من المكروه فيه من مشركي قومه، كما صبر من كان قبله من أولي العزم من رسله = ومُعرِّفَة أن عاقبة أمرِ

من كفر به الهلاكُ، وعاقبتَه النصرُ عليهم، سُنَّةُ الله في الذين خَلَوْا من قبل.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: (ولنسكننكم الأرضَ من بعدهم) ، قال: وعدهم النصرَ في الدنيا، والجنَّةَ في الآخرة.

وقوله: (ذلك لمن خَافَ مَقامي وخاف وَعِيدِ) ، يقول جل ثناؤه: هكذا فِعْلي لمن خاف مَقامَه بين يديّ، وخاف وعيدي فاتَّقاني بطاعته، وتجنَّب سُخطي، أنصُرْه على ما أراد به سُوءًا وبَغَاه مكروهًا من أعدائي، أهلك عدوّه وأخْزيه، وأورثه أرضَه وديارَه.

وقال: (لمن خَافَ مَقَامي) ، ومعناه ما قلت من أنه لمن خاف مَقَامه بين يديَّ بحيث أقيمه هُنالك للحساب، (١) كما قال: (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) [سورة الواقعة: ٨٢] ، معناه: وتجعلون رِزقي إياكم أنّكُم تكذبون. وذلك أن العرب تُضيف أفعالها إلى أنفسها، وإلى ما أوقعت عليه، فتقول: "قد سُرِرتُ برؤيتك، وبرؤيتي إياك"، فكذلك ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: {لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا} [الأعراف: ٨٨] ، وقال قوم لوط: {أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون} [النمل: ٥٦] ، وقال تعالى إخبارا عن مشركي قريش: {وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا} [الإسراء: ٧٦] ، وقال تعالى: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} [الأنفال: ٣٠] .

MOSTAFAALADWY.COM

وكان (١) من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارا وأعوانا وجندا، يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يرقيه [الله] (٢) تعالى من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم، و [من] (٣) سائر [أهل] (٤) الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: {فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم} كما قال تعالى: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون} [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي (٥) عزيز} [المجادلة: ٢١]، وقال: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} [الأنبياء: ١٠٥]،

{قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين} [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: {وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون} [الأعراف: ١٣٧].

وقوله: {ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد} أي: وعيدي (١) هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: {فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى} [النازعات: ٣٧-٤١]، وقال: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} [الرحمن: ٤٦].

MOSTAFAALADWY.COM

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) أي مقامه بين يدي يوم القيامة، فأضيف المصدر إلى الفاعل. والمقام مصدر كالقيام، يقال: قام قياما ومقاما، وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به. والمقام بفتح الميم مكان الإمامة، وبالضم فعل الإقامة، و" ذلك لمن خاف مقامي" أي قيامي عليه، ومراقبتي له، قال الله تعالى:" أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت" «٣» [الرعد ٣٣] . وقال الأخفش:" ذلك لمن خاف مقامي" أي عذابي،" وخاف وعيد" أي القرآن وزواجره. وقيل: إنه العذاب. والوعيد الاسم من الوعد.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار توعدوا الرسل بالإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم إن لم يتركوا ما جاءوا به من الوحي، وقد نص في آيات أخر أيضاً على بعض ذلك مفصلاً كقوله من قوم شعيب: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ} الآية [٧/ ٨٨، ٨٩]، وقوله عن قوم لوط: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [٢٧/ ٥٦]، وقوله عن مشركي قريش: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً} [١٧/ ٧٦]، وقوله: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [٨/ ٣٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى رسله أن العاقبة والنصر لهم على أعدائهم وأنه يسكنهم الأرض بعد إهلاك أعدائهم، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [٣٧/ ١٧١-١٧٣]، وقوله: {كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [٥٨/ ٢١]، وقوله: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} الآية [٤٠/ ٥١].

وقوله: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [٧/ ١٢٨]، وقوله: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} الآية [٧/ ١٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: وطلبوا الفتح والحكم والقضاء، أما الذين استفتحوا فمن هم؟ فللعلماء فيهم قولان: اشهرهما أن الذين استفتحوا هم رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه طلبوا من الله ﷻ أن يقضي بينهم وبين قومهم، وأن ينصرهم على قومهم، قال تعالى في شأن شعيب عليه السلام إذ قال: ﴿﴾، وقبله قال نوح عليه السلام: ﴿﴾.

MOSTAFAALBDWY.COM

هذا، والقول الآخر أن الذين استفتحوا هم الكفار، قال تعالى: ﴿﴾.

ولا مانع أن يكون الذين استفتحوا هؤلاء وأولئك فكلٌّ طلب من الله ﷻ أن يقضي بينه وبين الآخر.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: لم ينل مطلوبه ولم يَنْجُ من مرهوبه ﴿﴾ متكبر عن الحق رافض لقبوله حائد عن توحيد الله ﷻ متطاول على العباد ﴿﴾ معاندٌ للحق رافض له.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فقال بعض العلماء: إن معناها من أمامه جهنم تنتظره.

وقال آخرون: هي له بالمرصاد تلاحقه أينما كان والأكثرون على القول الأول.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: أن هذا الكافر شرابه ﴿﴾ قيل: هو القيح والدم الذي يخرج من الجروح، وقيل: هو ماءٌ حارٌ في غاية الحرارة يشبه الصديد في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة.

أما قوله: ﴿﴾ أي: يشربه جرعة جرعة مضطرًا لشربه ولكن لحرارته ولقذارته ولخبث رائحته لا يكاد يستساغ فإذا قرَّب إلى وجهه شواه، كما قال تعالى: ﴿﴾.

وإذا وصل الماء إلى الأمعاء قطعها، قال تعالى: ﴿﴾.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فمعناه - والله أعلم - وتأتيه أسباب الموت وصور العذاب ، وأنواع العذاب التي هي كفيلة بإماتته لو كان هناك موتٌ، تأتيه أنواع العذاب من كل اتجاه، فمن أمامه عذاب، ومن خلفه عذاب، يضرب من الأمام ومن الخلف ومن أسفل ومن أعلى، ومن داخل جسمه فإذا أكل مكانًا وقف

MOSTAFAALADWY.COM

في حلقه قال تعالى: ﴿﴾، وهذا كفيل، بإماتته لكن ربنا ما قضى عليه بالموت، قال تعالى: ﴿﴾، وقال تعالى: ﴿﴾.

يأتيه ضرب بالمطارق من فوق رأسه، وهذا كفيل بإماتته ولكنه لا يموت.

تأتيه النار من أعلاه ومن أسفله، فهي مهاده وفراشه، وسرادقها يُحيط به، وكل هذا كفيل بإماتته لو كان هناك، جلده يُشوى، أمعاؤه تتقطع، وكل هذا كفيل بإماتته لكن يضرب ولا يموت، نعوذ بالله من العذاب فلا أحد يشفق عليه، ولا أحد يهتم به، ولا أحد يدفع عنه العذاب، وإذ وجد وجد اللعنات تصاحبه وتحلُّ به حيث كان.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فالمراد: والله أعلم، أن بعد هذا العذاب الذي يُعذب به وبعض أسباب الموت التي يعاينها عذاب أخر شديد في النار، فلا تخفيف، بل زيادة في اعذاب، كما قال تعالى: ﴿﴾.

وبنحو ما ذكر قال العلماء في تفسير الآيات المذكورة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: واستفتحت الرُّسل على قومها: أي استنصرت الله عليها (٢) = (وخاب كل جبار عنيد) ، يقول: هلك كل متكبر جائر حائدٍ عن الإقرار بتوحيد الله وإخلاص العبادة له.

و"العنيد" و"العاند" و"العَنُود"، بمعنى واحد.

وأورد الطبري أقوالًا كثيرة في أن الذين استفتحوا هم الرسل.

وكذا أورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، ما مفاده أن الذين استفتحوا هم الكفار فأورد بإسناد صحيح في قوله: (واستفتحوا) ، قال: استفتاحهم بالبلاء، قالوا: اللهم إن كان هذا الذي أتى به محمد هو الحقّ من عندك فأمطر علينا

MOSTAFALABIY.COM

حجارةً من السماء، كما أمطرتها على قوم لوط، أو ائتنا بعذاب أليم. (١) قال: كان استفتاحهم بالبلاء كما استفتح قوم هود: (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) [سورة الأعراف: ٧٠] قال: فالاستفتاح العذاب، قال: قيل لهم: إنّ لهذا أجلا! حين سألوا الله أن ينزل عليهم، فقال:" بَلْ نُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ". (٢) فقالوا: لا نريد أن نؤخر إلى يوم القيامة: (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا) عَذَابَنَا (قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) [سورة ص: ١٦]. وقرأ: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ) حتى بلغ: (وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [سورة العنكبوت: ٥٣ - ٥٥].

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول عزّ ذكره: (من ورائه)، من أمام كل جَبار (جهنم)، يَرِدُونها.

و"وراء" في هذا الموضع، يعني أمام، كما يقال: "إن الموت مِنْ ورائك"، أي قُدّامك.

وقوله: (وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)، يقول: ويسقى من ماءٍ، ثم بيَّن ذلك الماء جل ثناؤه وما هو، فقال: هو "صديد"، ولذلك رد "الصَّديد" في إعرابه على "الماء"، لأنه بيَانٌ عنه.

و "الصديد"، هو القَيْحُ والدم.

وأورد بإسنادٍ صحيح بطريقيه عن قتادة، قوله: (ويسقى من ماء صديد)، و"الصديد"، ما يسيل من لحمه وجلدِه.

وقوله: (يتجرَّعه)، يتحسَّاه = (ولا يكاد يسيغه)، يقول: ولا يكاد يزدرده من شدة كراهته، وهو مُسيغه من شدّة العطش.

والعرب تجعل "لا يكاد" فيما قد فُعِل، وفيما لم يُفْعَل. فأما ما قد فعل،

MOSTAFAALADWY.COM

فمنه هذا، لأن الله جل ثناؤه جعل لهم ذلك شرابًا. وأمَّا ما لم يفعل وقد دخلت فيه "كاد" فقوله: حتى (إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) [سورة النور: ٤٠]، فهو لا يراها.

وقوله: (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت)، فإنه يقول: ويأتيه الموت من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، ومن كل موضع من أعضاء جسده = (وما هو بميت)، لأنه لا تخرج نفسه فيموت فيستريح، ولا يحيا لتعلُّق نفسه بالحناجر، فلا ترجع إلى مكانها.

وقوله: (ومن وَرائه عَذَابٌ غليظ)، يقول: ومن وراء ما هو فيه من العذاب = يعني أمامه وقدامه (١) = (عذاب غليظ).

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ الوجهين في تفسير قوله تعالى: ﴿﴾.

الأول: أن المراد الرسل.

والثاني: أن المراد الكفار.

وقال ابن كثير:

ويحتمل أن يكون هذا مرادا وهذا مرادا، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم} الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم.

{وخاب كل جبار عنيد} أي: متجبر في نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: {ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد} [ق: ٢٤ -٢٦].

وقوله: {من ورائه جهنم} و"وراء" ها هنا بمعنى "أمام"، كما قال تعالى:

MOSTAFAALABWY.COM

{وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا} [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عباس يقرؤها "وكان أمامهم ملك".

أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلدا يوم المعاد، ويعرض عليها غدوا وعشيا إلى يوم التناد.

{ويسقى من ماء صديد} أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا (١) في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والنتن، كما قال: {هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج} [ص: ٥٧، ٥٨].

وقوله: {يتجرعه} أي: يتغصصه ويتكرهه، أي: يشربه قهرا وقسرا، لا يضعه في فيه (٨) حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: {ولهم مقامع من حديد} [الحج: ٢١].

{ولا يكاد يسيغه} أي: يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذي لا يستطاع.

{ويأتيه الموت من كل مكان} أي: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه.

قال ميمون بن مهران: من كل عظم، وعرق، وعصب.

وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره.

وقال ابن جرير: {ويأتيه الموت من كل مكان} أي: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه (١) ومن تحت أرجله (٢) ومن سائر أعضاء جسده.

وقوله: {ومن ورائه عذاب غليظ} أي: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال

MOSTAFAALADWY.COM

تعالى عن شجرة الزقوم: {إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم} [الصافات: ٦٤ -٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم (٥) عياذا بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن} [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: {إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم إن هذا ما كنتم به تمترون} [الدخان: ٤٣ -٥٠]، وقال: {وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم} [الواقعة: ٤١-٤٤]، وقال تعالى: {هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج} [ص: ٥٥ -٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله، عز وجل، جزاء وفاقا، {وما ربك بظلام للعبيد} [فصلت: ٤٦].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿﴾.

ويظهر من هذا أنه يموت، وليس كذلك، لقول تعالى:" لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها" «٤» [فاطر: ٣٦] وبذلك وردت السنة، فأحوال الكفار أحوال من استولى عليه سكرات الموت دائما، والله أعلم. (ومن ورائه) أي من أمامه. (عذاب غليظ) أي شديد متواصل الآلام من غير فتور، ومنه قوله:" وليجدوا فيكم غلظة" «٥» [التوبة: ١٢٣] أي شدة وقوة.

وقال فضيل بن عياض في قول الله تعالى:" ومن ورائه عذاب غليظ" قال: حبس الأنفاس.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى:

قوله تعالى: {مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ} الآية، وراء هنا بمعنى أمام كما هو ظاهر ويدل له إطلاق وراء بمعنى إمام في القرآن، وفي كلام العرب فمنه في القرآن قوله تعالى: {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [١٨/ ٧٩]، أي: أمامهم ملك، وكان ابن عباس يقرؤها {وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا}، ومن إطلاق وراء بمعنى أمام في كلام العرب قول لبيد:

ألــيس ورائــي إن تراخــت منيتــي ... لـزوم العصـا تحنـي عليهـا الأصـابع

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

{مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ} أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد، فلا بد له من ورودها فيذاق حينئذ العذاب الشديد، {وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ} في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة.

{يَتَجَرَّعُهُ} من العطش الشديد {وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ} فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه وإذا وصل إلى بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء، {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ} أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت ولكن الله قضى أن لا يموتوا كما قال تعالى: {لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون فيها}

{وَمِنْ وَرَائِهِ} أي: الجبار العنيد {عَذَابٌ غَلِيظٌ} أي: قوي شديد لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى.

MOSTAFAALADWY.COM

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: همُّ الموت وكربه وألمه ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: من كل شعرة في جسده، رواه عطاء عن ابن عباس. وقال سفيان الثوري: من كل عِرْق. وقال ابن جريج: تتعلق نفسه عند حنجرته، فلا تخرج من فيه فتموت، ولا ترجع إلى مكانها فتجد راحة.

والثاني: من كل جهة، من فوقه وتحته، وعن يمينه وشماله، وخلفه وقُدَّامه، قاله ابن عباس أيضًا.

والثالث: أنها البلايا التي تصيب الكافر في النار، سماها موتًا، قاله الأخفش.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: موتًا تنقطع معه الحياة. ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي: من بعد هذا العذاب. قال ابن السائب: من بعد الصديد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾. وقال إبراهيم التيمي: بعد الخلود في النار. والغليظ: الشديد.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

ج: هذا - والله أعلم-: مثلٌ ضُرب لأعمال الكفار التي عملوها، وخاصة أعمال البر التي قاموا بها في دنياهم كصلة الأرحام وإطعام المساكين وغير ذلك، مثل أعمال الذين جحدوا وحدانية الله وعبدوا معه غيره كرمادٍ طيَّرته الرياح الشديدة، شديدة الهبوب والعصوف في يوم شديدة الرياح فيه تعصف بكل شيء وتزيله عن مكانه، فأصبحوا غير قادرين على الانتفاع بشيء من

أعمالهم التي عملوها في دنياهم فالأعمال شُبِّهت بالرماد (التراب) والشرك بالله ﷻ شبه بالرياح العاصفة فكما أن الرياح العاصفة تزيل ذرات التراب والغبار ولا يقدر الشخص بحالٍ من الأحوال على ردها والانتفاع بها، فكذلك أعمال أهل الشرك يُذهبا الشرك بالله ﷻ ويحبطها ويذهب بثوابها.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: سعيهم الذي سعوا وعملهم الذي عملوه وهم على الشرك هو الانحراف الشديد، والبُعد البعيد عن الحق والصواب والرشاد، والله أعلم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال ابن كثير رحمه الله:

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: {مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم} أي: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلم يجدوا شيئا، ولا ألفوا حاصلا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة {في يوم عاصف} أي: ذي ريح عاصفة قوية، فلا [يقدرون على شيء من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا إلا كما] (١) يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كما قال تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا} [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: {مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته} [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم

الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين} [البقرة: ٢٦٤].

وقال في هذه الآية: {ذلك هو الضلال البعيد} أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه، {ذلك هو الضلال البعيد} (٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ (التفسير القيم):

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾.

شبه الله تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف.

فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلا كالهباء المنثور، لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان، وكونها لغير الله عز وجل، وعلى غير أمره: برماد طيرته الريح العاصف. فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه. فلذلك قال: لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء. فلا يرون له أثرا من ثواب، ولا فائدة نافعة. فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، موافقا لشرعه.

والأعمال أربعة: فواحد مقبول. وثلاثة مردودة.

فالمقبول: الخالص الصواب. فالخالص: أن يكون لله لا لغيره.

والصواب: أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله.

والثلاثة المردودة ما خالف ذلك.

MOSTAFAALADWY.COM

وفي تشبيهها بالرماد سرّ بديع. وذلك للتشابه بين أعمالهم وبين الرماد، في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا. فكانت الأعمال التي لغير الله، وعلى غير مراده: طعمة للنار، وبها تسعّر النار على أصحابها.

وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارا وعذابا، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيما وروحا، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا. فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار.

قال الشنقيطي في أضواء البيان:

قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} الآية، ضرب الله تعالى لأعمال الكفار مثلاً في هذه الآية الكريمة برماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف، أي: شديد الريح، فإن تلك الريح الشديدة العاصفة تطير ذلك الرماد، ولم تبق له أثراً فكذلك أعمال الكفار كصلات الأرحام وقري الضيف والتنفيس عن المكروب وبر الوالدين ونحو ذلك يبطلها الكفر ويذهبها كما تطير تلك الريح ذلك الرماد، وضرب أمثالاً أخر في آيات أخر لأعمال الكفار بهذا المعنى كقوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا} [٢٤/ ٣٩]، وقوله: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ} الآية [٣/ ١١٧]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [٢/ ٢٦٤]،

وقوله: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً} [٢٥/ ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين في موضع آخر أن الحكمة في ضربه للأمثال أن يتفكر الناس فيها فيفهموا الشيء بنظرة، وهو قوله: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [٥٩/ ٢١]، ونظيره قوله: {وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [١٤/ ٢٥]، وبين في موضع آخر أن الأمثال لا يعقلها إلا أهل العلم، وهو قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [٢٩/ ٤٣]، وبين في موضع آخر أن المثل المضروب يجعله الله سبب هداية لقوم فهموه، وسبب ضلال لقوم لم يفهموا حكمته، وهو قوله: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} [٢/ ٢٦]، وبين في موضع آخر أنه تعالى لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ولو كان المثل المضروب بعوضة فما فوقها قيل: فما هو أصغر منها؛ لأنه يفوقها في الصغر، وقيل: فما فوقها، أي فما هو أكبر منها، هو قوله: {إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} [٢/ ٢٦]، ولذلك ضرب المثل بالعنكبوت في قوله: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [٢٩/ ٤١]، وضربه بالحمار في قوله: {كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً} الآية [٦٢/ ٥]، وضربه بالكلب في قوله: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ} [٧/ ١٧٦]، إلى غير ذلك، والعلم عند الله تعالى.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

اختلف أهلُ العربية في رافعِ "مَثَلُ".

فقال بعض نحويي البصرة: إنما هو كأنه قال: ومما نقصّ عليكم مَثَلُ الذين كفروا، ثم أقبل يفسّر، كما قال: (مَثَلُ الْجَنَّةِ) [سورة الرعد: ٣٥]، وهذا كثير.

وقال بعض نحويي الكوفيين: إنما المثل للأعمال، ولكن العرب تقدّم الأسماء، لأنها أعرفُ، ثم تأتي بالخبر الذي تخبر عنه مع صاحبه. ومعنى الكلام: مَثَلُ أعمال الذين كفروا بربهم كرماد، كما قيل: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ) [الزمر: ٦٠]، ومعنى الكلام: ويوم القيامة ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة. قال: ولو خفض "الأعمال" جاز، كما قال: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ) الآية [سورة البقرة: ٢١٧]، وقوله: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) [سورة الرعد: ٣٥]. قال: فـ"تجري"، هو في موضع الخبر، كأنه قال: أن تجري، وأن يكون كذا وكذا، فلو أدخل "أن" جاز. قال: ومنه قول الشاعر:

ذَرِينِي إِنَّ أَمْرَكِ لَنْ يُطَاعَا ... وَمَا أَلْفَيتِنِي حِلْمِي مُضَاعَا

قال: فالحلمُ منصوبٌ ب "ألفيتُ" على التكرير، (٣) قال: ولو رفعه كان صوابًا. قال: وهذا مثلٌ ضربه الله لأعمال الكفّار فقال: مَثَلُ أعمال الذين كفروا يوم القيامة، التي كانوا يعملونها في الدنيا يزعمُون أنهم يريدون الله بها، مَثَلُ رمادٍ عصفت الريح عليه في يومِ ريح عاصفٍ، فنسفته وذهبت به، فكذلك أعمال أهل الكفر به يوم القيامة، لا يجدون منها شيئًا ينفعهم عند الله فينجيهم من عذابه، لأنهم لم يكونوا يعملونها لله خالصًا، بل كانوا يشركون فيها الأوثان والأصنام.

يقول الله عز وجل: (ذلك هو الضلال البعيد) ، يعني أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، التي يشركون فيها مع الله شركاء، هي أعمالٌ عُملت على غير هُدًى واستقامة، بل على جَوْر عن الهُدَى بعيد، وأخذٍ على غير استقامة شديد.

وقيل: (في يوم عاصف) ، فوصف بالعُصوف اليومَ، (١) وهو من صفة الريح، لأن الريح تكون فيه، كما يقال: "يوم بارد، ويوم حارّ"، لأن البردَ والحرارة يكونان فيه.

وقوله: (ذلك هو الضَّلال البعيد) ، أي الخطأ البينُ، البعيدُ عن طريق الحق.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قال المفسرون: ومعنى الآية: أن كل ما يتقرَّب به المشركون يَحْبَط ولا ينتفعون به، كالرماد الذي سَفَتْه الريح فلا يُقدَر على شيء منه، فهم لا يقدرون مما كسبوا في الدنيا على شيء في الآخرة، أي: لا يجدون ثوابه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ من النجاة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله، بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد، الذي هو أدق الأشياء وأخفها، إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب، فإنه لا يبقى منه شيئا، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل، فكذلك أعمال الكفار {لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ} ولا على مثقال ذرة منه لأنه مبني على الكفر والتكذيب.

MOSTAFAALADWY.COM

{ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ} حيث بطل سعيهم واضمحل عملهم، وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها ليكيدوا بها الحق، فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك ومكرهم عائد عليهم ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ألم تر يا رسول الله بقلبك، ألم تعلم، والم تر أيضًا ببصرك وفكرك أن الله ﷻ خلق السموات والأرض بقدرته ولحكمة يعلمها، وليستدل العباد بخلقها على قدرته فيوحدونه ولا يشركون به شيئًا، وكذا ليستدلوا بها على البعث والثواب والعقاب.

فالذي خلقهما ﷻ قادر على أن يذهب بكم أيها الناس ويأت بأناس آخرين أطوع له منكم وأعبد له منكم كما قال تعالى: ﴿﴾، وكما قال: ﴿﴾.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: وما إماتتكم والذهاب بكم والإتيان بخلق جديد بأمر ممتنع على الله أو شاق عليه بل هو على كل شيء قدير.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول عز ذكره لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تر، يا محمد، بعين قلبك، (١) فتعلم أن الله أنشأ السماوات والأرض بالحق منفردًا بإنشائها بغير ظهير ولا مُعين = (إن يشأ يذهبكم ويَأت بخلق جديد) ، يقول: إن الذي تفرد

MOSTAFAABDW.COM

بخلق ذلك وإنشائه من غير معين ولا شريك، إن هو شاء أن يُذْهبكم فيفنيكم، أذهبكم وأفناكم، (٢) ويأتِ بخلق آخر سواكم مكانكم، فيجدِّد خلقهم = (وما ذلك على الله بعزيز) ، يقول: وما إذهابكم وإفناؤكم وإنشاء خلقٍ آخر سواكم مكانكُم، على الله بممتنع ولا متعذّر، لأنه القادر على ما يشاء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرا عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبراري وصحاري وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ {أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير} [الأحقاف: ٣٣] ، وقال تعالى: {أولم ير الإنسان (١) أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون} [يس: ٧٧ -٨٣] .

وقوله: {إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز} أي: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يذهبكم ويأتي بآخرين

على غير صفتكم، كما قال تعالى: {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز} [فاطر: ١٥ -١٧]، وقال: {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} [محمد: ٣٨]، وقال: {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه} [المائدة: ٥٤]، وقال: {إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا} [النساء: ١٣٣].

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه: ألم تُخْبَر، قاله ابن السائب.

والثاني: ألم تعلم، قاله مقاتل، وأبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال المفسرون: أي: لم يخلقهن عبثًا، وإنما خلقهن لأمر عظيم. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد: يميتكم يا معشر الكفار ويخلق قومًا غيركم خيرًا منكم وأطوع، وهذا خطاب لأهل مكة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع متعذِّر.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ينبه تعالى عباده بأنه {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ} أي: ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم وليستدلوا بهما وما فيهما على ما له من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض -على عظمهما وسعتهما- قادر على أن يعيدهم خلقا جديدا، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك ولهذا قال: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ

بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}

يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يكونون أطوع لله منكم، ويحتمل أن المراد أنه: إن يشأ يفنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقا جديدا، ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة.

{وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ} أي: بممتنع بل هو سهل عليه جدا، {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه}.

❁ ❁ ❁

MOSTAFAADWY.COM

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا
فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ
لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١ وَقَالَ
ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ
فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا
تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ
إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
٢٢ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣ ﴾

[إبراهيم: ٢١-٢٣]

MOSTAFAELADWY.COM

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ وَبَرَزُواْ - ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ - تَبَعٗا - مُّغۡنُونَ عَنَّا - لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ - سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ - أَجَزِعۡنَآ - صَبَرۡنَا - مَّحِيصٖ - قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ - وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ - سُلۡطَٰنٍ - بِمُصۡرِخِكُمۡ - بِمُصۡرِخِيَّ - كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ - بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ وَبَرَزُواْ ﴾	ظهروا – خرجوا إلى البراز (الفضاء).
﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ ﴾	الأتباع الذين اتبعوا ساءتهم وكبراءهم على الكفر ورضوا بذلك.
﴿تَبَعٗا ﴾	أتباعًا.
﴿مُّغۡنُونَ عَنَّا ﴾	دافعون عنا.
﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾	لو بيَّن الله لنا سبيلًا للنجاة الآن لبيَّناه لكم. لو وفقنا الله للإيمان في الدنيا لأرشدناكم
﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ ﴾	يستوي شأننا عند جزعنا أو عند صبرنا لا تغير في أحوالنا بتخفيف العذاب.
﴿أَجَزِعۡنَآ ﴾	أظهرنا الجزع والذي هو الخوف الشديد والألم الشديد.
﴿صَبَرۡنَا ﴾	تصبرنا على العذاب ولم نظهر تألمًا.
﴿مَّحِيصٖ ﴾	مهرب – مفرّ.

MOSTAFAALADWY.COM

﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾	انتهى الأمر، وانتهى الحساب، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.
﴿وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾	الوعد الحق، الوعد الذي تحقق.
﴿سُلۡطَٰنٍ﴾	حجة – برهان – بينة – قوة.
﴿بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾	بمغيثكم – بمنقذكم – بمخلِّصكم.
﴿بِمُصۡرِخِيَّ﴾	بمغيثيِّ – بمنقذي– بمخلِّصي.
﴿كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾	أنكرت عبادتكم لي واتخاذكم لي شريكًا مع الله، وطاعتكم التي أطعتموني إذ دعوتكم للكفر بالله.
﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾	بأمر ربهم.

❁ ❁ ❁

MOSTAFAALADWY.COM

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: أن الخلق جميعهم خرجوا من قبورهم يوم القيامة، فكانوا في فضاء من الأرض كانوا بالبراز ظاهرين، كما قال تعالى: ﴿﴾ فعندها، وقد أيقن الأتباع الضعفاء الذين رضوا بما صنعوه أئمة الضلال وتابعوهم عليه، قالوا للذين كانوا في الدنيا أهل كبر واستعلاء على الحق ورفضٍ له، قالوا لهم: إنا كنا لكم في الدنيا أتباعًا فهل أنتم اليوم دافعون عنا شيئًا من عذاب الله، فقال لهم سادتهم، وكبراؤهم الذين كانوا لهم سادة وكبراء في الدنيا، لو بيَّن الله ﷻ لنا طريقًا للخلاص من العذاب هاهنا لدللناكم عليه وأرشدناكم إليه، ولكن ليس هناك طريق للخلاص وليس هناك مفرٌّ من العذاب، فيستوي أمرنا إن أظهرنا الجزع والألم الشديد والخوف الشديد، الذي بنا وسواء علينا أخفيناه وتصبَّرنا على العذاب، فكل ذلك ليس بمجدٍ ولا بمُخفف للعذاب، وليس لنا من مفرٍّ نفرُّ إليه ولا من مهربٍ تهرب عليه.

هذا، وثمَّ قول آخر في تفسير قولهم: ﴿﴾ حاصله لو كان الله ﷻ قد وفقنا في الدنيا للإيمان لارضشدناكم إلى ذلك. والله أعلم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: (وبرزوا لله جميعًا)، وظهر هؤلاء الذين كفروا به يوم القيامة من قبورهم، فصاروا بالبَراز من الأرض (١) = (جميعًا)، يعني كلهم (٢) = (فقال الضعفاء للذين استكبروا)، يقول: فقال التُّبَّاع منهم

للمتبوعين، وهم الذين كانوا يستكبرون في الدنيا عن إخلاص العبادة لله واتباع الرسل الذين أرسلوا إليهم (٣) = (إنَّا كنا لكم تَبَعًا) ، في الدنيا.

و"التبع" جمع "تابع"، كما الغَيَب جمع "غائب".

وإنما عنوا بقولهم: (إنا كنا لكم تبعًا) ، أنهم كانوا أتباعهم في الدنيا يأتمرون لما يأمرونهم به من عبادة الأوثان والكفر بالله، وينتهون عما نهوهم عنه من اتّباع رسل الله = (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) ، يعنون: فهل أنتم دافعون عنَّا اليوم من عذاب الله من شيء.

قوله: (لو هدانا الله لهديناكم)، يقول عز ذكره: قالت القادةُ على الكفر بالله لتُبَّاعها: (لو هدانا الله) ، يعنون: لو بَيَّن الله لنا شيئًا ندفع به عَذَابَه عنا اليوم = (لهديناكم) ، لبيَّنا ذلك لكم حتى تدفعوا العذابَ عن أنفسكم، ولكنا قد جزعنا مِن العذاب، فلم ينفعنا جَزَعُنا منه وصَبْرُنا عليه (٢) = (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) ، يعنون: ما لهم من مَراغٍ يرُوغون عنه. (٣)

يقال منه: "حاص عن كذا"، إذا راغ عنه، "يَحِيصُ حَيْصًا، وحُيُوصًا وحَيَصَانًا.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) ، قال: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدركَ أهل الجنة الجنَّةَ ببكائهم وتضرُّعهم إلى الله، فتعالوا نبكي ونتضرع إلى الله! قال: فبكوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنَّما أدرك أهل الجنة الجنّةَ بالصبر، (١) تعالوا نصبر! فصبروا صبراً لم يُرَ مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) .

MOSTAFAALBDW.COM

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول: {وبرزوا [لله] (١) } أي: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أي: اجتمعوا له في براز (٢) من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدا.

{فقال الضعفاء} وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة.

الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: {إنا كنا لكم تبعا} أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، {فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء} أي: فهل تدفعون عنا شيئا من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: {لو هدانا الله لهديناكم} ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

{سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص} أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: {وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد} [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: {قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من (٤) النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون} [الأعراف:

٣٨، ٣٩] ، وقال تعالى: {يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا} [الأحزاب: ٦٦ -٦٨] .

وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: {ولو ترى إذ الظالمون (١) موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا (٢) الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون} [سبأ: ٣١ -٣٣] .

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{وَبَرَزُوا} أي: الخلائق {لِلَّهِ جَمِيعًا} حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأجداث إلى ربهم فيقفون في أرض مستوية قاع صفصف، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، ويبرزون له لا يخفى [عليه] منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟

فيقول {الضُّعَفَاءُ} أي: التابعون والمقلدون {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} وهم: المتبوعون الذين هم قادة في الضلال: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا} أي: في الدنيا، أمرتمونا بالضلال، وزينتموه لنا فأغويتمونا، {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ} أي: ولو مثقال ذرة، {قَالُوا} أي: المتبوعون والرؤساء {أغويناكم كما غوينا} و {لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ} فلا يغني أحد أحدا، {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا} من العذاب {أَمْ صَبَرْنَا} عليه، {مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} أي: من

ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لفظه لفظ الماضي، ومعناه المستقبل، والمعنى: خرجوا من قبورهم يوم البعث، واجتمع التابع والمتبوع، ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم المتبوعون. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ قال الزجاج: هو جمع تابع، يقال: تابع وتَبَع، مِثْل: غائب وغَيَب، والمعنى: تبعناكم فيما دعوتمونا إليه.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ أي: دافعون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾. قال القادة: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي: لو أرشدنا في الدنيا لأرشدناكم، يريدون: أن الله أضلَّنا فدعوناكم إلى الضلال، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ قال ابن زيد: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالَوْا نبكي ونضرع، فإنما أدرك أهلُ الجنة الجنةَ ببكائهم وتضرُّعهم، فبَكَوْا وتضرعوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم، قالوا: تعالَوْا نصبر، فانما أدرك أهل الجنة الجنةَ بالصبر، فصبروا صبراً لم يُرَ مثلُه قط، فلم ينفعهم ذلك، فعندها قالوا: «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص».

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾.

ج: هذا - والله أعلم-: بيان لبعض أحوال أهل النار فلما قضي الحساب،

ودخل أهل الجنة الجنة ودخل أهل النار النار، قام الشيطان خطيبًا في أهل النار قائلًا: إن الله وعدكم في الدنيا وعودًا فتحققت تلك الوعود، وعدكم على كفركم النار وهاأنتم قد دخلتموها، أما أنا فوعدتكم وغششتكم وأخبرتكم أنه لا جنة ولا نار فكنت كاذبًا في ذلك ومنَّيتكم أماني باطلة فلم تتحقق، وما كان لي في الدنيا عليكم من سلطان، أي: من حجة وبرهان فلم تكن عندي حجةٌ ولا بينة تدل على صدقي، وكذا لم يكن معي قوة أقهركم بها لاتباعي، إنما فقط دعوتكم إلى الكفر والشهوات والشبهات فأجبتموني وفكرتم واتبعتم أهواءكم وشهواتكم فلا تتوجهوا إليَّ باللوم، ولكن لوموا أنفسكم ووبِّخوها أما الآن فما أنا بمغيثكم ولا منقذكم مما أنتم فيه، وما أنتم بمنقذيَّ ولا بمغيثيَّ إني كفرت بما صنعتموه في شأني، كفرت بجعلكم إياي شريكًا مع الله فأطعتموني وعصيتم ربكم.

إني أنكرت وجحدت ما صنعتموه من اتخاذكم إياي شريكًا مع الله، ومن عبادتكم إلهًا آخر مع الله، إن الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بشركهم بالله لهم عذابٌ مؤلمٌ موجع.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال إبليس، (٢) (لما قُضِي الأمر)، يعني لما أدخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ، واستقرّ بكل فريق منهم قرارهم، (٣) أن الله وعدكم، أيها الأتباعُ، النارَ، ووعدتكم النُّصْرة، فأخلفتكم وعدي، ووفى الله لكم بوعده = (وما كان لي عليكم من سلطان)، يقول: وما كان لي عليكم، فيما وعدتكم من النصرة، من حجة تثبت لي عليكم بصدق قولي (٤) = (إلا أنْ دعوتكم). وهذا من الاستثناء المنقطع عن الأول، كما تقول: "ما ضربْتُه

إلا أنه أحمق"، ومعناه: ولكن (دعوتكم فاستجبتم لي) . يقول: إلا أن دعوتكم إلى طاعتي ومعصية الله، فاستجبتم لدعائي (١) = (فلا تلوموني) ، على إجابتكم إياي (ولوموا أنفسكم) ، عليها = (ما أنا بمُصْرِخِكم) ، يقول: ما أنا بمُغِيثكم = (وما أنتم بمصرخِيَّ) ، ولا أنتم بمُغيثيَّ من عذاب الله فمُنْجِيَّ منه = (إني كفرت بما أشركتمون من قبل) ، يقول: إني جَحدْت أن أكون شريكًا لله فيما أشركتموني فيه من عبادتكم = (من قبل) في الدنيا = (إن الظالمين لهم عذاب أليم) ، يقول: إن الكافرين بالله لهم عذاب = "أليم"، من الله موجع.

يقال: " أصْرَختُ الرجلَ"، إذا أغثته "إصراخًا"، و "قد صَرَخ الصَّارخ، يصرُخ، ويَصْرَخ، قليلة، وهو الصَّرِيخ والصُّراخ".

وأورد بإسنادٍ صحيح عن داود، عن الشعبي قال: يقوم خطيبان يوم القيامة، أحدهما عيسى، والآخر إبليس. فأما إبليس فيقوم في حزبه فيقول: (إن الله وعدكم وعد الحق) ، فتلا داود حتى بلغ: (بما أشركتمون من قبل) ، فلا أدري أتمَّ الآية أم لا؟ وأما عيسى عليه السلام فيقال له: (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ) ، فتلا حتى بلغ: (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [سورة المائدة: ١١٦ - ١١٨] .

وبإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي) ، ما أنا بمغيثكم، وما أنتم بمغيثي= قوله: (إني كفرت بما أشركتمون من قبل) ، يقول: عصيت الله قبلكم.

وبإسنادٍ صحيح عن ابن زيد قال: خطيبُ السَّوْء الصادق إبليس، (١) أفرأيتم صادقًا لم ينفعه صِدقهُ: (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان) ، أقهركم به = (إلا أن دعوتكم

فاستجبتم لي) ، قال: أطعتموني = (فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) ، حين أطعتموني = (ما أنا بمصرخكم) ، ما أنا بناصركم ولا مغيثكم = (وما أنتم بمصرخيّ) ، وما أنتم بناصريّ ولا مغيثيّ لما بي = (إني كفرت بما أشركتمون من قبل إنّ الظالمين لهم عذاب أليم) .

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عما خطب به إبليس [لعنه الله] (٣) أتباعه، بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس -لعنه الله- حينئذ خطيبا ليزيدهم حزنا إلى حزنهم (٤) وغبنا إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: {إن الله وعدكم وعد الحق} أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعدا حقا، وخبرا صدقا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: {يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا} [النساء: ١٢٠].

ثم قال: {وما كان لي عليكم من سلطان} أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، {إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي} بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، {فلا تلوموني} اليوم، {ولوموا أنفسكم} فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، {ما أنا بمصرخكم} أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، {وما أنتم بمصرخي} أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، {إني كفرت بما أشركتمون من قبل}

قال قتادة: أي بسبب ما أشركتمون من قبل.

MOSTAFAALBADWY.COM

وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكا لله، عز وجل.

وهذا الذي قال هو الراجح (١) كما قال تعالى: {ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين} [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: {كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا} [مريم: ٨٢].

وقوله: {إن الظالمين} أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل {لهم عذاب أليم}.

وقال السعدي رحمه الله:

أي: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ} الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مخاطبا لأهل النار ومتبرئا منهم {لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ} ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. {إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ} على ألسنة رسله فلم تطيعوه، فلو أطعتموه [ص:٤٢٥] لأدركتم الفوز العظيم، {وَوَعَدْتُكُمْ} الخير {فَأَخْلَفْتُكُمْ} أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة.

{وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} أي: من حجة على تأييد قولي، {إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} أي: هذا نهاية ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي وزينته لكم، فاستجبتم لي اتباعا لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت الحال بهذه الصورة {فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ} فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب، {مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ} أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها {وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} كل له قسط من العذاب.

{إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ} أي: تبرأت من جعلكم لي شريكا

مع الله فلست شريكا لله ولا تجب طاعتي، {إِنَّ الظَّالِمِينَ} لأنفسهم بطاعة الشيطان {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} خالدين فيه أبدا.

وهذا من لطف الله بعباده، أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار وحزبه (١) أنه يتبرأ منهم هذه البراءة، ويكفر بشركهم {ولا ينبئك مثل خبير}

واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى {إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون} فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلا على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي.

وأما السلطان الذي أثبته فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يؤُزّهم إلى المعاصي أزّا، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ قال المفسرون: يعني به إبليس، ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي: فُرِغ منه، فدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فحينئذ يجتمع أهل النار باللَّوم على إبليس، فيقوم فيما بينهم خطيبًا ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: وعدكم كَوْن هذا اليوم فَصَدَقكم ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ أنه لا يكون ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الوعد ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما أظهرت لكم حُجَّةً على ما ادَّعيت. وقال بعضهم: ما كنت أملككم فأُكرهكم ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ وهذا من الاستثناء المنقطع، والمعنى: لكن دعوتكم ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي

﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ حيث أجبتموني من غير برهان، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي: بمغيثكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ أي: بمغيثيَّ. قرأ حمزة «بمُصرِخيِّ» فحرك الياء إلى الكسر، وحرَّكها الباقون إلى الفتح. قال قُطرب: هي لغة في بني يربوع، يعني: قراءة حمزة. قال اللغويون: يقال: استصرخني فلان فأصرخته، أي: استغاثني فأغثته. ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ﴾ اليوم بإشراككم إياي في الدنيا مع الله في الطاعة، ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: المشركين.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣﴾.

ج: هذا - والعلم عند الله -: بيانٌ لحال أهل الغيمان ومصيرهم بعد أن بُيِّن حال أهل الكفر والعصيان والمآل الذي صاروا إليه، يقول تعالى: ﴿﴾ حدائق وبساتين ﴿﴾ أي: أن دخولهم بإذن الله لهم بالدخول وإلا فأعمالهم لا تؤهلهم لدخولها.

دخولها بفضل الله، وبإنعام من الله عليهم، فأذن الله لهم بالدخول.

أما قوله: ﴿﴾، أي: تحية بعضهم لبعض بالسلام وبالكلام الطيب، وكذا تُحَيِّهم الملائكة بالسلام كما قال تعالى: ﴿﴾.

وكذا فيأتيهم سلام من الله ﴿﴾.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول عز ذكره: وأدخل الذين صدقوا الله ورسوله، فأقرُّوا بوحدانية الله وبرسالة رُسله. وأنّ ما جاءت به من عند الله حق = (وعملوا الصالحات)،

يقول: وعملوا بطاعة الله. فانتهوا إلى أمر الله ونهيه = (جنَّات تجري من تحتها الأنهار)، بساتين تجري من تحتها الأنهار = (خالدين فيها)، يقول ماكثين فيها أبدًا (١) = (بإذن ربهم)، يقول: أُدخلوها بأمر الله لهم بالدخول= (تحيتهم فيها سلامٌ)، (٢) وذلك إن شاء الله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال. وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا (١) {خالدين فيها} ماكثين أبدا لا يحولون ولا يزولون، {بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام} كما قال تعالى: {حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم} [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم} [الرعد: ٢٣، ٢٤] وقال تعالى: {ويلقون فيها تحية وسلاما} [الفرقان: ٧٥]، وقال: {دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين} [يونس: ١٠].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب الطائعين فقال: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: قاموا بالدين، قولا وعملا واعتقادا {جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} فيها من اللذات والشهوات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، {خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} أي: لا بحولهم وقوتهم بل بحول الله وقوته {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ} أي: يحيي بعضهم بعضا بالسلام والتحية والكلام الطيب.

MOSTAFAALBDWY.COM

❁ ❁ ❁

MOSTAFAALADWY.COM

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

(أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا
فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن
فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ
﴿٢٧﴾ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾
جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ
قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ
﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ
مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ
وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا
تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ۞

[إبراهيم: ٢٤-٣٤]

MOSTAFALADWY.COM

س: وضح معنى ما يلي:

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً - أَصْلُهَا ثَابِتٌ - تُؤْتِي أُكُلَهَا - كُلَّ حِينٍ - بِإِذْنِ رَبِّهَا - يَتَذَكَّرُونَ - كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ - اجْتُثَّتْ - قَرَارٍ - بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ - وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ - بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا - وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ - دَارَ الْبَوَارِ - أَندَادًا - لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ - وَلَا خِلَالٌ - دَائِبَيْنِ - لَا تُحْصُوهَا - كَفَّارٌ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾	المراد بها لا إله إلا الله، ويلحق بها كل كلم يقرب من الله عز وجل ويرضيه.
﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾	مستقرها بجذعها في الأرض.
﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾	تعطي ثمرتها.
﴿كُلَّ حِينٍ﴾	كل وقت معين.
﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾	بأمر الله عز وجل.
﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾	يتعظون ويعتبرون.
﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾	المراد بها كلمة الشرك، وكل كلم يباعد من الله عز وجل ويُسخطه.
﴿اجْتُثَّتْ﴾	استؤصلت - انتزعت.
﴿قَرَارٍ﴾	ثبات (في الأرض).

MOSTAFAALADWY.COM

﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾	المراد به قول لا إله إلا الله، وتثبيت المؤمن عليه في الدنيا وفي القبر عند سؤال الملكين..
﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾	يصرف الله الظالمين عن طريق الحق.
﴿بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾	غيروا شكر نعمة الله إلى جحود ونكران وكفران.
﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾	أنزلوا قومهم.
﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾	دار الهلاك.
﴿أَندَادًا﴾	أمثالًا – أشباهًا – نظراء.
﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾	ليصرفوا الناس عن طريق الله ﷻ. (وقيل: إن اللام لام العاقبة أي: أنهم صرفوا الناس بذلك عن طريق الله، هذه عاقبة اتخاذهم الأنداد).
﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾	ولا صداقة شديدة تنفع.
﴿دَآئِبَيْنِ﴾	مستمرين في جريانهما.
﴿لَا تُحْصُوهَا﴾	لا تستطيعوا عدَّها.
﴿كَفَّارٌ﴾	جحود لنعم الله غير شاكر لها.

❁ ❁ ❁

MOSTAFAALSHAMY.COM

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: الم تر بعين قلبك - ألم تر بفكرك وحسن نظرك وبصيرتك كيف ضرب الله مثلًا للكلمة الطيبة؟!!

لقد ضرب لها مثلًا بشجرة طيبة!

أما الكلمة الطيبة فهي عند الأكثرين قول لا إله إلا الله، فهي أطيب كلمة على الإطلاق، بها ينجو العبد من النار ويَسْلَم من النار إذا علم بمقتضاها.

أما الشجرة الطيبة فهي النخلة كما أفاده حديث النبي ﷺ إذ قال: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَة مثلَهَا مِثلَ المؤمِن**»[1] ثم قال: «**هِيَ النَّخْلَة**».

فالنخلة شجرة طيبة كثيرة المنافع يكاد يُنتفع بكل شيء فيها.

فالكلمة الطيبة لا إله إلا الله شبهت بالشجرة الطيبة التي هي النخلة وكما أن النخلة أصلها ثابت في الأرض وثمرتها عالية فكذلك قول لا إله إلا الله، ثابت في قلب المؤمن، وتصعد ثمرته، وثمرة العمل المبني عليه إلى السماء فتتقبل من قائلها الأقوال والأعمال.

فينتفع صاحب الكلمة الطيبة، كلمة لا إله إلا الله بقوله وبعمله وبصالح نواياه كما أن صاحب النخلة ينتفع بثمة نخلته.

وكما أن النخلة تؤتي ثمرتها كل مدةٍ زمنية بإذن ربها فكذلك كلمة لا غله

---

(١) البخاري (٤٦٩٨)، ومسلم (٢٨١١).

إلا الله يؤتي قائلها ثوابها كل حين بإذن الله ﷻ، فكلما عمل قائلها بمقتضاها وكلما كررها صاحبها يأتيه ثوابها وثواب العمل بها وينتفع بذلك ويثبت ذلك في صحيفة عمله يلقاه يوم يلقى ربَّه ﷻ فلا يزال يرفع لقائل لا إله إلا الله عمل صالح وقول صالح كذلك بإذن الله ﷻ.

هذا، ولا يمنع أن يدخل مع كلمة لا إله إلا الله، كل كلمة ابتغي بها وجه الله ﷻ فيكون لها نفع في وقتٍ من الأوقات.

وقوله تعالى: ﴿ ﴾ أي: يتعظون ويعتبرون.

أما الكلمة الخبيثة، وهي كلمة الشرك والعياذ بالله فضرب لها مثلٌ بشجرة خبيثة، قال عدد من المفسرين: إنها الحنظل، وقد ورد بذل حديث عن رسول الله ﷺ في سنده ضعف.

وهذه الشجرة الخبيثة ليس لها قرار ولا ثبات بل تأتيها الرياح فتعصف بها.

فالكلمة الخبثة كلمة الشرك لا يصعد لصاحبها عمل صالح إلى السماءن فأعماله مردودة عليه، وأقواله مردودة عليه، عمله حابط، وسعيه باطل في ضلال، كشجرة استؤصلت من فوق الأرض وأُلقي بها ولم يُعبأ بها ولم يهتم، فالكافر لا أصل له ولا فرع لا إيمان في قلبه ولا ثمرة لعمله ولا لقوله.

فلا يقبل مع الشرك عمل، والشجرة الخبيثة التي ليس لها قرار لا تثمر ثمرةً ينتفع بها ولا يمتنع أن يدخل مع هذه الكلمة الخبثة كلمة الشرك كل باطلٍ لا يبتغى به وجه الله كذلك.

هذا، وبنحو الذي ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

MOSTAFAALADWY.COM

وقوله: (ألم تر كيف ضربَ الله مَثلا كلمة طيبه كشجرة طيبة)، يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تر، يا محمد، بعين قلبك، فتعلم كيف مثَّل الله مثَلا وشبَّه شبَهًا (١) = (كلمة طيبة)، ويعني بالطيبة: الإيمانَ به جل ثناؤه، (٢) كشجرة طَيِّبة الثمرة، وترك ذكر "الثمرة" استغناء بمعرفة السَّامعين عن ذكرها بذكر "الشَّجرة". وقوله: (أصلها ثابت وفرعها في السماء)، يقول عز ذكره: أصلُ هذه الشجرة ثابتٌ في الأرض = "وفرعها"، وهو أعلاها في "السماء"، يقول: مرتفع علُوًّا نحوَ السماء. وقوله: (تؤتي أُكُلَهَا كل حين بإذن ربّها)، يقول: تطعم ما يؤكل منها من ثمرها كلّ حين بأمرِ ربها (٣) = (ويضرب الله الأمثال للناس)، يقول: ويمثِّل الله الأمثال للناس، ويشبّه لهم الأشباهَ (٤) = (لعلهم يتذكرون)، يقول: ليتذكروا حُجَّة الله عليهم، فيعتبروا بها ويتعظوا، فينزجروا عما هم عليه من الكفر به إلى الإيمان.

وقد اختلف أهل التأويل في المعنى بالكلمة الطيبة.

فقال بعضهم: عُني بها إيمانُ المؤمن.

وأورد بسندٍ ضعيف عن ابن عباس، قوله: (كلمة طيبة)، شهادةُ أن لا إله إلا الله = (كشجرة طيبة)، وهو المؤمن = (أصلها ثابتٌ)، يقول: لا إله إلا الله، ثابتٌ في قلب المؤمن = (وفرعها في السماء)، يقول: يُرْفَع بها عملُ المؤمن إلى السماء.

وقال آخرون: بل عُنِي بها المؤمن نفسُه.

وأورد بسندٍ أشد ضعفًا عن ابن عباس قوله: (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها)،، يعني بالشجرة الطيبة المؤمنَ، ويعني بالأصل الثابت في الأرض،

MOSTAFAALADWY.COM

وبالفرع في السماء، يكون المؤمن يعمَلُ في الأرض، ويتكلَّم، فيبلغ عمله وقولُه السَّماءَ وهو في الأرض.

قال الطبري: واختلفوا في هذه "الشجرة" التي جعلت للكلمة الطيبة مثلًا.

فقال بعضهم: هي النخلة.

وأورد بسندٍ صحيح عن أنس: (كشجرة طيبة) ، قال: هي النخلة.

وكذا أورد بسندٍ صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: النخل.

قال الطبري: وقال آخرون: بل هي شجرة في الجنة.

واختار الطبري القول القائل أنها (النخلة) مستدلًّا بحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ من الشجر شجرةً ، وهي مثل المؤمن؟ أخبروني ما هي**، فوقع الناس في شجر البَوادي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**هي النخلة**».

قال الطبري رحمه الله:

واختلف أهل التأويل في معنى "الحين" الذي ذكر الله عز وجل في هذا الموضع فقال: (تؤتي أكلَها كلَّ حِين بإذن ربِّها) .

فقال بعضهم: معناه: تؤتي أكلَها كلّ غَداةٍ وعَشِيَّة.

وأورد بسندٍ صحيح ابن عباس قال: "الحين" قد يكون غُدْوَة وَعشيّة.

قال الطبري: وقال آخرون: معنى ذلك: تؤتي أكلها كل ستة أشهر، من بين صِرَامها إلى حَمْلها.

وأورد بسندٍ صحيح عن طارق بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: "الحين"، ستة أشهر.

وبسند صحيح عن أيوب قال: قال عكرمة: سُئلت عن رجل حَلَف أن لا

MOSTAFALADY.COM

يصنع كذا وكذا إلى حين؟ فقلت: إن من الحين حينًا يُدْرَك، ومن الحين حينًا لا يُدْرَك، فالحين الذي لا يدرك قوله: (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) [سورة ص: ٨٨] ، والحين الذي يدرك، (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) ، قال: وذلك من حين تُصْرَم النخلة إلى حين تُطْلِعُ، وذلك ستَّة أشهر.

وقال الطبري: وقال آخرون: بل "الحين" ههنا سنة.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن شعبة قال: سألت حمادًا والحكم عن رجل حلف ألا يكلم رجلا إلى حين؟ قالا الحينُ: سنة.

وقال آخرون: بل "الحين" في هذا الموضع: شهرَان.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قولُ من قال: عنى بالحين، في هذا الموضع، غدوةً وعشيةً، وكلَّ ساعة، لأن الله تعالى ذكره ضَرَب ما تؤتي هذه الشجرة كلَّ حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامِه مثلا ولا شك أن المؤمن يُرفع لهُ إلى الله في كلّ يوم صالحٌ من العمل والقول، لا في كل سنة، أو في كل ستة أشهر، أو في كل شهرين. فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن المَثَل لا يكون خِلافًا للمُمَثَّل به في المعنى. وإذا كان ذلك كذلك، كان بَيِّنًا صحةُ ما قلنا.

فإن قال قائل: فأيُّ نخلة تؤتي في كل وقت أكلا صيفًا وشتاء؟ قيل: أما في الشتاء، فإن الطَّلْع من أكُلها، وأما في الصيف فالبَلَح والبُسْرُ والرُّطَب والتَّمرُ، وذلك كله من أكلها.

وذهب الطبري إلى أن قوله: ﴿﴾ معناه: ثمرها، وأورد ذلك بإسنادٍ صحيح بطريقيه عن قتادة.

وقال في تأويل قوله تعالى: {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ

فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) }.

يقول تعالى ذكره: ومثل الشِّركَ بالله، وهي "الكلمة الخبيثة"، = كشجرة خبيثة.

اختلف أهل التأويل فيها أيّ شجرة هي؟

فقال أكثرهم: هي الحنظل.

وأورد بإسنادٍ عن أنس قال: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) ، قال: الحنظل.

وقال آخرون: هذه الشجرة لم تُخْلَق على الأرض.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتصحيح قول من قال: هي الحنظلة، خبَرٌ. فإن صحَّ، فلا قولَ يجوز أن يقال غيرُه، وإلا فإنها شجرة بالصِّفة التي وصفها الله بها.

ذكر الخبر الذي ذكرناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

حدثنا سَوَّار بن عبد الله قال، حدثنا أبي قال، حدثنا حماد بن سلمة، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ومثل كَلِمة خبيثةٍ كشجرة خبيثة اجْتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قَرار)، قال: هي الحنظلة = قال شعيب: وأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كانوا يقولون.

وقوله: (اجْتُثَّت من فوق الأرض) ، يقول: استُؤْصِلت. يقال منه: اجتَثَثْتُ الشيء، أَجْتَثُّه اجتثاثًا: إذا استأصلتَه.

(ما لها من قرار) ، يقول: ما لهذه الشجرة من قَرار ولا أصل في الأرض

تثْبُت عليه وتقوم. وإنما ضُرِبت هذه الشجرة التي وصَفها الله بهذه الصفة لكُفر الكافر وشركِه به مثلا. يقول: ليس لكُفر الكافر وعَمَله الذي هو معصيةُ الله في الأرض ثباتٌ، ولا له في السماء مَصْعَد، لأنه لا يَصْعَد إلى الله منه شيء.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار)، قال قتادة: إن رجلا لقي رجلا من أهل العلم فقال: ما تقول في "الكلمة الخبيثة"، فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًّا، ولا في السماء مَصْعَدًا، إلا أن تَلْزَم عُنُقَ صاحبها، حتى يوافي بها القِيامة.

وأورد بسندٍ يُحسَّن عن الربيع بن أنس: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة)، قال: هذا الكافر ليس له عمل في الأرض، ولا ذكرٌ في السماء= (اجتُثت من فوق الأرض ما لها من قرار)، قال: لا يصعد عمله إلى السماء، ولا يقوم على الأرض. فقيل: فأين تكون أعمالهم؟ قال: يَحْمِلون أوزارهم على ظُهورهم.

وأورد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث[1]: ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ تُشْبِهُ -أَوْ: كَالرَّجُلِ -الْمُسْلِمِ، لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا [لَا صَيفًا وَلَا شِتَاءً وَ] تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ**». قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**». فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أَبَتَا، وَاللهِ لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ. قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكَلَّمَ؟ قَالَ: لَمْ أَرَكُمْ تَتَكَلَّمُونَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ

(١) البخاري (٤٦٩٨)، ومسلم (٢٨١١).

شَيْئًا. قَالَ عُمَرُ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين.

{بإذن ربها} أي: كاملا حسنا كثيرا طيبا، {ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون}

وقوله: {ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة} هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: «الشريان». [رواه شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك: «**أنها شجرة الحنظل**»[(١)] .

وقوله: {اجتثت} أي: استؤصلت {من فوق الأرض ما لها من قرار} أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

فأما الحكمة في تمثيل الإيمان بالنخلة، فمن أوجه:

أحدها: أنها شديدة الثبوت، فشبِّه ثبات الإيمان في قلب المؤمن بثباتها.

والثاني: أنها شديدة الارتفاع، فشُبِّه ارتفاع عمل المؤمن بارتفاع فروعها.

والثالث: أن ثمرتها تأتي كل حين، فشُبِّه ما يكسب المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين على اختلاف صنوفها، فالمؤمن كلما قال: لا إِله إلا الله، صَعِدَتْ إِلى السماءِ، ثم جاءه خيرها

---

(١) ضعيف، وقد تقدمت الإشارة إليه.

MOSTAFAALBDWY.COM

ومنفعتها.

والرابع: أنها أشبهُ الشجر بالإنسان، فإن كل شجرة يقطع رأسها تتشعب غصونها من جوانبها، إلا هي، إذا قُطع رأسها يبست، ولأنها لاتحمل حتى تلقَّح.

وقال أيضًا:

قوله تعالى: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ قال ابن قتيبة: استُؤصلت وقُطعت. قال الزجاج: ومعنى اجتثت الشيء في اللغة: أخذت جُثته بكمالها.

وفي قوله: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ قولان:

أحدهما: ما لها من أصل، لم تضرب في الأرض عِرقًا.

والثاني: ما لها من ثبات.

ومعنى تشبيه الكافر بهذه الشجرة أنه لا يصعد للكافر عمل صالح، ولا قول طيب، ولا لقوله أصل ثابت.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً} "وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وفروعها {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} وهي النخلة {أَصْلُهَا ثَابِتٌ} في الأرض {وَفَرْعُهَا} منتشر {فِي السَّمَاءِ} وهي كثيرة النفع دائما. {تُؤْتِي أُكُلَهَا} أي: ثمرتها {كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} فكذلك شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علما واعتقادا. وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة في السماء دائما يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره، {وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} ما أمرهم به ونهاهم عنه، فإن في

ضرب الأمثال تقريبا للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذي أراده الله غاية البيان، ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته وحسن تعليمه. فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها، في قلب المؤمن.

ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر وفروعها فقال: {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ} المأكل والمطعم وهي: شجرة الحنظل ونحوها، {اجْتُثَّتْ} هذه الشجرة {مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} أي: من ثبوت فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة، تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة، فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث يستضر به صاحبه، ولا ينتفع، فلا يصعد إلى الله منه عمل صالح ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

شبه سبحانه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة. لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع. وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله. فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة. فكل عمل صالح مرض لله فهو ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال[١]: كلمة طيبة: شهادة أن لا إله إلا الله. كشجرة طيبة: وهو المؤمن. أصلها ثابت قول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن وَفَرْعُهَا فِي السَّماءِ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

(١) سنده ضعيف.

MOSTAFAALADWY.COM

وقال الربيع بن أنس: كلمة طيبة: هذا مثل الإيمان. فإن الإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه. وفرعها في السماء: خشية الله. والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن. فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء. ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها. فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها. فعرف حقيقة إلهيته التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفي تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلا. كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا. فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت. فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى.

وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلما كثيرا طيبا، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فأخبر سبحانه، أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب. وأخبر

أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملا صالحا كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها وحقيقتها نفيا وإثباتا، ومتصفا بموجبها، قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته.

فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد أصلها ثابت راسخ في قلبه. وفروعها متصلة بالسماء. وهي مخرجة ثمرتها كل وقت.

ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة. ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح.

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه. كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي[١] عن ابن عباس في قوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} يعني بالشجرة الطيبة: المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض، والفرع في السماء: يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم، فيبلغ عمله وقوله السماء. وهو في الأرض.

وقال عطية العوفي[٢] في قوله: {ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلى الله.

وقال الربيع بن أنس: أصلها ثابت وفرعها في السماء، قال: ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، أصلها ثابت قال: أصل عمله ثابت في الأرض، وفرعها في السماء قال: ذكره في السماء.

ولا اختلاف بين القولين.

---

(١) سنده ضعيف جدًّا.

(٢) سنده ضعيف جدًّا.

والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مشبهة به، وهو مشبه بها. وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك.

ومن قال من السلف: إنها شجرة في الجنة. فالنخلة من أشرف أشجار الجنة.

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علم الرب الذي تكلم به، وحكمته سبحانه.

فمن ذلك: أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر.

فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه له. فعروقها: العلم والمعرفة، واليقين وساقها: الإخلاص، وفروعها: الأعمال وثمرتها: ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكية، والسّمت الصالح والهدى والدّلّ المرضي. فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور.

فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر، والهدى والدّل والسّمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها: علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة، التي اجتثّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها. فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس. فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على

التفكر، وبالتفكر على التذكر، وإلا أوشك أن تيبس.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم**»[(١)].

وبالجملة: فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك.

ومن هاهنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، ومن عظيم رحمته، وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده: أن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه دغل ونبت غريب، ليس من جنسه. فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه كمل الغرس والزرع، واستوى وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب، وأذكى. وإن تركه أوشك أن يغلب على الغراس والزرع، ويكون الحكم له أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به، فإنه يفوته ربح كبير.

وهو لا يشعر.

فالمؤمن دائما سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها.

فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم. والله المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم.

ولعلها قطرة من بحر، بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة. وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا

---

(١) ضعيف.

القلوب، وصفت الأذهان، وذكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم وبينهم في الفضل. والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله، ويختص من يشاء برحمته.

فصل

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة. فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار، فلا عرق ثابت، ولا فرع عال، ولا ثمرة زاكية. فلا أصل، ولا جنّى، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت. فلا أسفلها مغدق، ولا أعلاها مونق ولا جنى لها، ولا تعلو، بل تعلى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكتبهم. وجده كذلك. فالخسران كل الخسران: الوقوف معه، والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه، الذي هو كتاب الرب سبحانه.

قال الضحاك: ضرب الله مثل الكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. يقول: ليس لها أصل ولا فرع. وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة. كذلك الكافر لا يعمل خيرا، ولا يقوله، ولا يجعل له فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: ومثل كلمة خبيثة: وهي الشرك، كشجرة خبيثة: يعني الكافر. اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر، ولا برهان. ولا يقبل الله مع الشرك عملا، فلا يقبل عمل المشرك ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في

MOSTAFAALBADWY.COM

السماء يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلا لقي رجلا من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرا، ولا في السماء مصعدا، إلا أن تلزم عنق صاحبها، حتى يوافي بها القيامة.

وقوله «اجتثت» أي استؤصلت من فوق الأرض.

ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين: أصحاب الكلم الطيب، وأصحاب الكلم الخبيث. فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين، وهم المشركون عن القول الثابت. فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: يثبت الله ﷻ أهل الإيمان على قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعلى الإسلام عمومًا يثبتهم على ذلك في دنياهم حتى الممات، وعند الممات وكذا يثبتهم عليها في الآخرة.

وأكثر أهل العلم على أن المراد بالتثبيت في الآخرة تثبيتهم بعد الممات في قبورهم، إذا سئلوا في قبورهم: ما ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيلقنهم الله

حجتهم ويوفقهم لقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأن ديننا هو الإسلام، وقد جاءت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ، وسيأتي ذكرها إن شاء الله هذا، ومن العلماء من قال: إن تثبيتهم بها في الآخرة حين يلقون ربهم ﷻ، يلقونه وهم يشهدون له بالوحدانية كما كانوا يشهدون بذلك في الدنيا، ويشهدون لرسوله بالرسالة، كما كانوا يشهدون في الدنيا.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: ويصرف الله أهل الشرك، عن قول لا إله إلا الله في دنياهم، وفي قبورهم فيعرضون في الدنيا عن قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكذا في قبورهم فإنهم إذا سألهم المكان عن دينها وعن ربها وعن نبيها، فإنهم لا يدرون الجواب بل ويصرفون عنه فيقول قائلهم: هاها لا أدري فيضربون حينئذٍ بمطارق من حديد على رؤوسهم. كما جاءت بذلك الأحاديث.

فإن سأل سائل لماذا صُرفوا عن الحق ولماذا أضلهم الله؟ فجواب ذلك: ﴿﴾ فهو أعلم بعباده ﷻ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يعني تعالى ذكره بقوله: (يثبت الله الذين آمنوا) ، يحقق الله أعمالَهم وإيمانهم (بالقول الثابت) ، يقول: بالقول الحق، وهو فيما قيل: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله.

وأما قوله: (في الحياة الدنيا) ، فإن أهل التأويل اختلفُوا فيه، فقال بعضهم: عنى بذلك أن اللهَ يثَبتهم في قبورهم قبلَ قيام الساعة.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن البَراء بن عازب، في قوله: (يثبت الله الذين آمنوا

MOSTAFALABIB.COM

بالقول الثابت في الحياة الدنيا) ، قال: التثبيت في الحياة الدنيا إذا أتاه المَلكان في القبر فقالا له: مَن ربك؟ فقال: ربّي الله. فقالا له: ما دينك؟ قال: ديني الإسلام. فقالا له: مَن نبيك؟ قال: نبيِّي محمدٌ صلى الله عليه وسلم. فذلك التثبيت في الحياة الدنيا.

وبسندٍ صحيح عن البراء بن عازب: أن رسول الله ﷺ قال: إن المسلم إذا سئل في القبر فيشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. قال: فذلك قوله: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة).

وقال الطبري رحمه الله:

حدثني الحسين بن سَلَمة بن أبي كَبْشة، ومحمد بن معمر البَحْراني = واللفظ لحديث ابن أبي كبشة = قالا حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو قال، حدثنا عبَّاد بن راشد، عن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال: يا أيها الناس، إن هذه الأمة تبتلى في قُبورها، فإذا الإنسان دُفِن وتفرَّق عنه أصحابه، جاءه ملك بيده مِطْراقٌ فأقعده فقال: ما تقولُ في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبدُه ورسوله. فيقول له: صدقْتَ. فيفتح له بابٌ إلى النار فيقال: هذا منزلك لو كفرتَ بربّك، فأما إذْ آمنت به، فإن الله أبدَلك به هذا. ثم يفتح له بابٌ إلى الجنة، فيريد أن ينْهَضَ له، فيقال له: اسكُنْ. ثم يُفْسَح له في قبره. وأما الكافِر أو المنافق فيقال له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما أدري! فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا تَدَرّيتَ ولا اهتديتَ! ثم يفتح له بابٌ إلى الجنة فيقال له: هذا كان منزلك لو آمنت بربك، فأما إذْ كفرت، فإن الله أبدَلك هذا. ثم يفتح له بابٌ إلى النار، ثم يَقْمَعُه المَلَكُ

بالمطراق قَمْعَةً يسمعه خَلْقُ الله كُلهم إلا الثقلين. قال، بعضُ أصحابه، يا رسولَ الله، ما مِنَّا أحدٌ يقوم على رأسه مَلَكٌ بيده مِطْراق إلا هِيلَ عند ذلك! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثَّابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويُضِلُّ الله الظالمين ويفعلُ الله ما يشاء) .

وقال آخرون: معنى ذلك: يثبت الله الذين آمنوا بالإيمان في الحياة الدنيا، وهو "القول الثابت" = "وفي الآخرة"، المسألةُ في القبر.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا) ، أما " الحياة الدنيا" فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، وقوله (وفي الآخرة) ، أي في القبر.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك ما ثبتَ به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، وهو أنّ معناه: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا) ، وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم = (وفي الآخرة) بمثل الذي ثبَّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يُسْألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم.

وأما قوله: (ويضلُّ الله الظالمين) ، فإنه يعني، أن الله لا يوفِّق المنافق والكافر في الحياة الدنيا وفي الآخرة عند المُسَاءَلة في القبر، (١) لما هدي له من الإيمان المؤمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وقوله: (ويفعل الله ما يشاء) ، يعني تعالى ذكره بذلك: وبيدِ الله الهداية والإضلال، فلا تنكروا، أيها الناس، قدرتَه، ولا اهتداءَ من كان منكم ضالا ولا ضلالَ من كان منكم مهتديًا، فإنّ بيده تصريفَ خلقه وتقليبَ قلوبهم، يفعل

فيهم ما يشاء.

وأورد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **"اَلْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ، شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ**: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ}[(١)].

وما أخرجه أحمد بسند صحيح[(٢)] من حديث عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكت بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: **"اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ"**، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: **"إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوط مِنْ حَنُوط الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ. ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ"**. قَالَ: **"فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الحنُوط، وَيَخْرُجَ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ -يَعْنِي بِهَا -على ملأ من الملائكة إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ [الطَّيِّبُ] (١) ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانٌ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي [كَانُوا] (٢)**

---

(١) البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢٧٨١).

(٢) أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٧-٢٨٨).

يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيين، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى".

قَالَ: "فتُعَادُ رُوحُهُ [فِي جَسَدِهِ] (٣) فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ -قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ. وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ. فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ. رَبِّ، أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي".

قَالَ: "وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ. ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ". قَالَ: "فتفرق فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا (٤) فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ. وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا:

مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانٌ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا [حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا] (٥) فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ". ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [الْأَعْرَافِ: ٤٠]، فَيَقُولُ اللهُ: "اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحَ رُوحُهُ طَرْحًا". ثُمَّ قَرَأَ: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الْحَجِّ: ٣١].

"فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ [الْوَجْهُ] يَجِيءُ بِالشَّرِّ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ، لَا تُقِمِ السَّاعَةَ".

وأورد ابن كثير طائفة كثيرة جدًّا من الأحاديث في عذاب القبر ونعيمه.

وأورد كذلك ما أخرجه أبو داود وغيره بسندٍ حسن[1] من حديث عُثْمَانَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الرَّجُلِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»، انْفَرَدَ بِهِ أبو دَاوُدَ.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

---

(١) أبو داود (٣٢٢١).

وقوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: يثبتهم على الحق بالقول الثابت، وهو شهادة أن لا إله إلا الله. قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن الحياة الدنيا: زمان الحياة على وجه الأرض، والآخرةُ: زمان المساءلة في القبر، وإلى هذا المعنى ذهب البراء بن عازب، وفيه أحاديث تعضده.

والثاني: أن الحياة الدنيا: زمن السؤال في القبر، والآخرةُ: السؤال في القيامة، وإلى هذا المعنى ذهب طاووس، وقتادة قال المفسرون: هذه الآية وردت في فتنة القبر، وسؤال الملكين، وتلقين الله تعالى للمؤمنين كلمة الحق عند السؤال، وتثبيته إياه على الحق. ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يعني: المشركين، يضلهم عن هذه الكلمة، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ من هداية المؤمن وإضلال الكافر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (التفسير القيم):

قول الله تعالى ذكره:

{يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ}.

تحت هذه الآية كنز عظيم، من وفّق لمعرفته وحسن استخراجه واقتنائه وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم.

وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين. فإن لم يثبته الله، وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما. وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله {وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} وقال تعالى

MOSTAFAADLY.COM

لأكرم خلقه: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: «**وهو يسألهم ويثبتهم**» وقال تعالى لرسوله: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ}.

والخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت.

ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أمر به العبد.

فبهما يثبت الله عبده. فكل من كان أثبت قولا وأحسن فعلا كان أعظم تثبيتا قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً}.

فأثبت الناس قلبا: أثبتهم قولا.

والقول الثابت: هو القول الحق الصدق. وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له.

وأثبت القول: كلمة التوحيد ولوازمها. فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة. ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبا، والكاذب من أبغض الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونا، وأقلهم ثباتا. وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الأخبار وشجاعته ومهابته.

ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك. ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به؟.

فقال: والله ما فهمت منه شيئا إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست صولة مبطل.

فما منح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول

الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم، ويوم معادهم. كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ: «إن هذه الآية نزلت في عذاب القبر».

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: ألم تنظر بعينيك وبقلبك إلى مصير هؤلاء الذين بدلوا شكر نعمة الله ﷻ بالجحود والنكران والكفران.

ألم تر إلى هؤلاء القرشيين الذين كانوا آمنين مطمئنين في رغدٍ من العيش يأيت بلدتهم رزقها من كل مكان ثم منَّ الله عليهم بنعمة من أعظم النعم وأجلِّ النعم، وهي بعثة رسول الله ﷺ فيهم ومنهم وبلسانهم فكان من اللائق أن يقدموا لكل ذلك شكرًا، ولكنهم بدلوا هذا الشكر بكفر بالله ﷻ وتكذيب لرسول الله ﷺ وتعذيب من آمنوا به، وطرده وطردهم من البلاد فتسببوا لأنفسهم بذلك في عقاب الله ﷻ، وذلك أنهم لم يكتفوا بالذي صنعوه فخرجوا بقومهم من ديارهم بطرًا ورياء وسمعةً، خرجوا إلى بدر للقاء رسول الله ﷺ وقتاله ولتسمع بهم العرب، فأنزلوا قومهم الذين خرجوا معهم والذين تابعوهم على كفرهم أسوار المنازل أنزلوهم دار الهلاك، الذي ليس بعده هلاك فقتل من قتل منهم ببدر، فآل أمره إلى جهنم بعد قتله، آل أمره إلى جهنم يستقر فيها أبد الآبدين!!

آل أمره إلى جهنم يُشوى بحرها ولهيبها فبئس المستقر وبئس المنزل،

فنزل هؤلاء الذي نزلوه بعد هلاكهم، لقد جعلوا في دنياهم لله ﷻ أمثالًا من حجارة تعبد من دونه وتُسال وتُرجى فيسجدون لها ويتضرعون حولها، فأضلوا الناس عن طريق الله ﷻ وصرفوهم عن عبادته إلى عبادة من سواه، فقل لهؤلاء تمتعوا بدنياكم تلك الدنيا الفانية الزائلة، تمتعوا بدنياكم تلك الدنيا الفانية الزائلة، تمتعوا فيها كيف شئتم؟ فإنها لكم مهما كان فيها من نكدٍ لكم ومهما كان فيها من متاع أيضًا، جنةٌ لكم بالنسبة إلى ما أُعد لكم من سوء العذاب في الآخرة.

قل لهم: تمتعوا فإن مصيركم الذي تصيرون إليه ومنتهى أمركم إلى النار.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ألم تنظر يا محمد (إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا) يقول: غيروا ما أنعم الله به عليهم من نعمه، فجعلوها كُفرا به، وكان تبديلهم نعمة الله كفرا في نبيّ الله محمد صلى الله عليه وسلم، أنعم الله به على قريش، فأخرجه منهم، وابتعثه فيهم رسولا رحمة لهم، ونعمة منه عليهم، فكفروا به، وكذّبوه، فبدّلوا نعمة الله عليهم به كفرا. وقوله: (وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) يقول: وأنزلوا قومهم من مُشركي قريش دار البوار، وهي دار الهلاك، يقال منه: بار الشيء يبور بورا: إذا هلك وبطل؛ ومنه قول ابن الزِّبعرى، وقد قيل إنه لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

يا رَسُولَ المليكِ إنَّ لِساني ... رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ

ثم ترجم عن دار البوار، وما هي؟ فقيل (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ) يقول: وبئس المستقرّ هي جهنم لمن صلاها. وقيل: إن الذين بدّلوا نعمة الله

كفرا: بنو أمية، وبنو مخزوم.

وأورد الطبري بأسانيد تصح عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هم كفار قريش، يعني في قوله: ﴿ ﴾ جهنم.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: هم كفار قريش.

وبإسنادٍ صحيح عن سعيد بن جبير قال: قتلى يوم بدر.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا} أَلَمْ تَعْلَمْ؟ كَقَوْلِهِ: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ} [إِبْرَاهِيمَ: ٢٤] {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا} [الْبَقَرَةِ: ٢٤٣] الْبَوَارُ: الْهَلَاكُ، بَارَ يَبُورُ بَوْرًا، وَ {قَوْمًا بُورًا} [الْفُرْقَانِ:١٨، الْفَتْحِ: ١٢] هَالِكِينَ.

وأورد البخاري بإسناده عن ابْنُ عَبَّاسٍ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا} قَالَ: هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ.

وقال العوفي[١]، عن ابن عباس في هذه الآية: هو جبلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب، فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار.

وأورد ابن كثير[٢] أيضًا بإسناد صحيح عن عليٍّ قال: هم كفار قريش يوم بدر.

---

(١) العوفي عن ابن عباس بسند ضعيف.

(٢) وعزاه لابن أبي حاتم.

MOSTAFAALADWY.COM

وقوله: {وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله} أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك.

ثم قال تعالى مهددا لهم (٨) ومتوعدا لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: {قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار}

أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء {فإن مصيركم إلى النار} أي: مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: {نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ} [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: {متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون} [يونس: ٧٠].

وقال الطبري في تأويل قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)}.

يقول تعالى ذكره: وجعل هؤلاء الذين بدّلوا نعمة الله كفرا لربهم أندادا، وهي جماع نِدّ.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا) والأنداد: الشركاء.

قال الطبري:

وقوله (لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامَّة قرّاء الكوفيين (لِيُضِلُّوا) بمعنى: كي يضلوا الناس عن سبيل الله بما فعلوا من ذلك. وقرأته عامَّة قرّاء أهل البصرة: "لِيَضَلُّوا" بمعنى: كي يضلّ جاعلو الأنداد لله عن سبيل الله. وقوله (قُلْ تَمَتَّعُوا) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهم: تمتعوا في الحياة الدنيا وعيدا من الله لهم، لا إباحَة لهم التمتع بها، ولا أمرا على وجه العبادة، ولكن توبيخا وتهددا ووعيدا، وقد

MOSTAFALADWA.COM

بَيَّن ذلك بقوله (فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) يقول: استمتعوا في الحياة الدنيا، فإنها سريعة الزوال عنكم، وإلى النار تصيرون عن قريب، فتعلمون هنالك غبّ تمتعكم في الدنيا بمعاصي الله وكفركم فيها به.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ أي: في حياتكم الدنيا، وهذا وعيد لهم. قال ابن عباس: لو كان الكافر مريضًا لا ينام، جائعًا لا يأكل ولا يشرب، لكان هذا نعيمًا يتمتع به بالقياس إلى ما يصير إليه من العذاب، ولو كان المؤمن في أنعم عيش، لكان بؤسًا عندما يصير إليه من نعيم الآخرة.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى - مبينا حال المكذبين لرسوله من كفار قريش وما آل إليه أمرهم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا} ونعمة الله هي إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم.

{و} صدهم غيرهم حتى {أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} وهي النار حيث تسببوا لإضلالهم، فصاروا وبالا على قومهم، من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم " بدر " ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الوقعة.

{جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا} أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم {وَبِئْسَ الْقَرَارُ} {وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا} أي: نظراء وشركاء {لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ} أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد ودعوهم إلى

عبادتها، {قُلْ} لهم متوعدا: {تَمَتَّعُوا} بكفركم وضلالكم قليلا فليس ذلك بنافعكم {فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} أي: مآلكم ومقركم ومأواكم فيها وبئس المصير.

❁ ❁ ❁

MOSTAFAALADWY.COM

الحث على إقامة الصلاة والإنفاق في الطاعات سرًّا وعلانية

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: قل يا رسول الله لعبادي، قل لمن شرفهم الله ﷻ بنسبتهم إليه، قل لعبادي هؤلاء الذين آمنوا بالله وصدقوك فيما أخبرتهم به عن الله ﷻ، قل لهم يحافظوا على الصلوات المكتوبات فيؤدونها كما أمروا وفي الوقت الذي أمروا أن يصلوها فيه ويداوموا على ذلك، ويتبعوا الفرض بالنفل كذلك، وكذا قل لهم يؤدوا الزكاة التي افترضها عليهم في أموالهم وفي زروعهم وفي مواشيهم وغير ذلك على النحو الذي أمرتهم به في كتابي وعلى لسان رسولي، ويتبعوا الفرض بالنفل فيتطوعوا بالصدقات بعد أدائهم الفرائض، قل لهم ينفقوا مما رزقناهم فالرزق من الله، قل لهم ينفقوا سرًّا حيث يحتاج المقام إلى إسرارٍ بالإنفاق، وعلانية حيث يستدعي الأمر على الإعلان، قل لهم: يصلوا ويتصدقوا من قبل أن يأتي يوم القيامة ذلكم اليوم الذي لا بيع فيه، لا يقبل من أحدٍ أي فداء يفتدي به مهما افتدى، ولو كان له ملءُ الأرض ذهبًا فقدمه فديةً فلن يقبل منه، وكذلك لن تنفع في هذا اليوم صداقات، لن تنفع أهل الكفر علاقاتهم التي كانت بينهم في الدنيا ولن ينتفع أحدٌ منهم بصديقه الحميم الذي كان له في الدنيا صديقًا حميمًا.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم (قُلْ) يا محمد (لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا) بك، وصدّقوا أن ما جئتهم به من عندي (يُقِيمُوا الصَّلاةَ) يقول: قل لهم:

MOSTAFAALDW.COM

فليقيموا الصلوات الخمس المفروضة عليهم بحدودها، ولينفقوا مما رزقناهم، فخوّلناهم من فضلنا سرّا وعلانية، فليؤدّوا ما أوجبت عليهم من الحقوق فيها سرّا وإعلانا (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ) يقول: لا يقبل فيه فدية وعوض من نفس وجب عليها عقاب الله بما كان منها من معصية ربها في الدنيا، فيقبل منها الفدية، وتترك فلا تعاقب. فسمى الله جل ثناؤه الفدية عوضا، إذ كان أخذ عوض من معتاض منه. وقوله (وَلا خِلالٌ) يقول: وليس، هناك مخالة خليل، فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالته، بل هنالك العدل والقسط.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى آمرا العباد (١) بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب.

والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها.

وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر، أي: في الخفية، والعلانية وهي: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم {من قبل أن يأتي يوم} وهو يوم القيامة، وهو يوم {لا بيع فيه ولا خلال} أي: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع (٢) نفسه، كما قال تعالى: {فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا} [الحديد: ١٥].

وأورد ابن كثير قول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿﴾ ثم قال:

والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية، ولو افتدى

MOSTAFAALADWY.COM

بملء الأرض ذهبا لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافرا، قال الله تعالى: {واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون} [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون} [البقرة: ٢٥٤].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

قل لعبادي المؤمنين آمرا لهم بما فيه غاية صلاحهم وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: {يُقِيمُوا الصَّلاةَ} ظاهرا وباطنا {وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ} أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلا أو كثيرا {سِرًّا وَعَلانِيَةً} وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها.

{مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ} أي: لا ينفع فيه شيء ولا سبيل إلى استدراك ما فات لا بمعاوضة بيع وشراء ولا بهبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله، ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ}، أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بالمبادرة إلى الطاعات كالصلوات والصدقات من قبل إتيان يوم القيامة الذي هو اليوم الذي لا بيع فيه ولا مخالة بين خليلين فينتفع أحدهما بخلة الآخر، فلا يمكن أحداً أن تباع له نفسه فيفديها، ولا خليل ينفع خليله

MOSTAFAALADWY.COM

يومئذ، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ} الآية [٢/ ٢٥٤]، وقوله: {فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [٥٧/ ١٥]، وقوله: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا} الآية [٢/ ٤٨]، ونحو ذلك من الآيات، والخلال في هذه الآية، قيل: جمع خلة كقلة وقلال، والخلة: المصادقة، وقيل: هو مصدر خاله على وزن فاعل مخالة وخلالاً، ومعلوم أن فاعل ينقاس مصدرها على المفاعلة والفعال، وهذا هو الظاهر، ومنه قول امرىء القيس:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ولست بمقلي الخلال ولا قال

أي ليست بمكروه المخالة.

❁ ❁ ❁

التذكير بنعم الله ﷻ وآلائه وقدرته

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

ج: يُذكر الله سبحانه وتعالى خلقه بنعمه عليهم وبقدرته فهو الذي خلق السموات بغير عمدٍ، وزينها به من نجوم وكواكب، وجعل فيها ما جعل من شمس وقمر وغير ذلك، وجعلها سقفًا محفوظًا بما فيها من الآيات والدلالات على وحدانيته ﷻ، وكذا خلق الأرض وجعلها مهاد، وجعل فيها

فجاجًا سبلًا لعلهم يهتدون، وأرساها بالجبال الرواسي الشامخات كي لا تميد بمن عليها من الخلق، وأجرى فيها الأنهار وجعل فيها البحار، وأنبت فيها الشجر والنبات والثمر، وبث فيها من كل دابة، وجعل فيها من الآيات ما جعل وأنزل من السماء ماءً (وهو المطر والغيث) فأخرج بسببه من الأرض نباتها وثمارها رزقًا لكم، وكذا سخر لكم السفن العظيمة الهائلة تجري في البحار ماخرة، وأودع الله في البحار ما أودع كي تحمل هذه السفن، وسخر لها الرياح لإجرائها في البحار، كل ذلك بأمر الله وإذنه، وإلا فلو شاء الله ما تحركت كما قال تعالى: ﴿﴾.

وكذا فإنه جلَّ ذكره أجرى الأنهار وسخرها لكم بما فيه من عذب المياه سقيًا لزرعكم، وشرابًا لكم ولمواشيكم، وإحياءً لأرضكم.

وكذا فإنه عزَّ جاهه وجل ذِكره سخر لكم الشمس والقمر يتعاقبان ولا يفتران ولا يتوقفان إلا إذا شاء الله فهذا يعقب تلك، وتلك معقبة له في حركة مستمرة وتعاقب سخرها لكم الشمس لتنتفعوا بها في حياتكم وفي زروعكم وفي رؤيتكم وإبصاركم في النهار، وبكل صور الانتفاع المتأتية من وراء الشمس وكي تستدلوا بها أيضًا على قدرة خالقكم ﷻ وعلى وحدانيته فهو الذي يأتي بها من المشرق، ولا تُشرق إلا بإذنه، وكذا القمر سخره الله لكم فسلطانه في الليل لاستقرار الناس وسكنهم ليلًا، وللانتفاع بكل ما يتفع به من القمر، وكذا للاستدلال به على قدرة الله ووحدانيته، وكذا فإنه ﷻ سخر لكم الليل لتسكنوا فيه، وجعل نومكم سباتًا أي: راحة، وسخر لكم النهار كي تبتغوا من فضله بسعيكم على معاشكم وتنقلكم في البلاد، وأعطاكم الله ﷻ ووفَّر لكم كل ما به تقوم حياتكم وما يقوم به معاشكم وكذا أعطاكم من جنس

كل ما سألتموه، ومن الذي لم تسألوه أيضًا، فإذا دعوتموه أجابكم وإذا سألتموه أعطاكم يعطيكم ما ينفعكم ويصرف عنكم ما دمتم مؤمنين به ما يضركم، فيعطيكم الذي يشاء ويمنع عنكم الذي يُريد أن يمنع، وإن تعدوا نعم الله التي أنعم بها عليكم لا تحصوها، لا تستطيعوا عدَّها ولا إحصاءها ومهما قدمتم لها من شكر فلن تفوا بحقها، فشكركم لله عليها يحتاج إلى شكرٍ، ذلك لأن الذي وفقكم لشكره هو الله ﷻ، فكلما شركتم فشكركم نعمة من الله عليكم تحتاج إلى شكر آخر، فإذا قلتم الحمد لله، فالذي وفقكم لها هو الله، فقولكم لها يحتاج إلى شكر وهكذا، ولكن الإنسان لظلوم لنفسه كثير الظلم، ظلوم لنفسه إذ ينزلها منازل سيئة بعصيانه وبشركِهِ، ظلوم لنفسه ولغيره كذلك كفار جحود لنعم الله ﷻ عيه، لا يقدم شكرًا إلا القليل.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: الله الذي أنشأ السماوات والأرض من غير شيء أيها الناس، وأنزل من السماء غيثا أحيا به الشجر والزرع، فأثمرت رزقا لكم تأكلونه (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ) وهي السفن (لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) لكم تركبونها وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد (وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنْهَارَ) ماؤها شراب لكم، يقول تعالى ذكره: الذي يستحقّ عليكم العبادة وإخلاص الطاعة له، من هذه صفته، لا من لا يقدر على ضرّ ولا نفع لنفسه ولا لغيره من أوثانكم أيها المشركون وآلهتكم.

يقول تعالى ذكره (اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ) وفعل الأفعال التي وصف (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) يتعاقبان عليكم أيها الناس بالليل

والنهار، لصلاح أنفسكم ومعاشكم (دَائِبَيْنِ) في اختلافهما عليكم. وقيل: معناه: أنهما دائبان في طاعة الله.

وقوله (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) يختلفان عليكم باعتقاب، إذا ذهب هذا جاء هذا بمنافعكم وصلاح أسبابكم، فهذا لكم لتصرّفكم فيه لمعاشكم، وهذا لكم للسكن تسكنون فيه، ورحمة منه بكم.

وقال في تأويل قوله تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) }.

يقول تعالى ذكره: وأعطاكم مع إنعامه عليكم بما أنعم به عليكم من تسخير هذه الأشياء التي سخرها لكم والرزق الذي رزقكم من نبات الأرض وغروسها من كل شيء سألتموه، ورغبتم إليه شيئا، وحذف الشيء الثاني اكتفاء بما التي أضيفت إليها كلّ، وإنما جاز حذفه، لأن من تُبعِّض ما بعدها، فكفت بدلالتها على التبعيض من المفعول، فلذلك جاز حذفه، ومثله قوله تعالى: (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) يعني به: وأوتيت من كل شيء في زمانها شيئا، وقد قيل: إن ذلك إنما قيل على التكثير، نحو قول القائل: فلان يعلم كل شيء، وأتاه كل الناس، وهو يعني بعضهم، وكذلك قوله (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) . وقيل أيضا: إنه ليس شيء إلا وقد سأله بعض الناس، فقيل (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) أي قد أتى بعضكم منه شيئا، وأتى آخر شيئا مما قد سأله. وهذا قول بعض نحويّي أهل البصرة.

وكان بعض نحويِّي أهل الكوفة يقول: معناه: وآتاكم من كلّ ما سألتموه لو سألتموه، كأنه قيل: وآتاكم من كلّ سؤلكم، وقال: ألا ترى أنك تقول للرجل، لم يسألك شيئا: والله لأعطينك سُؤْلك ما بلغت مسألتك، وإن لم

يسأل.

فأما أهل التأويل، فإنهم اختلفوا في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: وآتاكم من كلّ ما رغبتم إليه فيه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وآتاكم من كل الذي سألتموه والذي لم تسألوه.

ويقول تعالى ذكره: وإن تعدّوا أيها الناس نعمة الله التي أنعمها عليكم لا تطيقوا إحصاء عددها والقيام بشكرها إلا بعون الله لكم عليها. (إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) يقول: إن الإنسان الذي بدل نعمة الله كفرا لظلوم: يقول: لشاكر غير من أنعم عليه، فهو بذلك من فعله واضع الشكر في غير موضعه، وذلك أن الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم واستحق عليه إخلاص العبادة له، فعبد غيره وجعل له أندادا ليضلّ عن سبيله، وذلك هو ظلمه، وقوله (كَفَّارٌ) يقول: هو جحود نعمة الله التي أنعم بها عليه لصرفه العبادة إلى غير من أنعم عليه، وتركه طاعة من أنعم عليه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السماوات سقفا محفوظا (١) والأرض فراشا، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هاهنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع.

MOSTAFAALDWY.COM

{وسخر لكم الشمس والقمر دائبين} أي: يسيران لا يقران (٢) ليلا ولا نهارا، {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون} [يس: ٤٠]، {يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} [الأعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار عارضان (٣) فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، {يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير (٤)} [لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: {يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى} [الزمر: ٥].

وقوله: {وآتاكم من كل ما سألتموه} يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم (٥) وقالكم.

وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

وقرأ بعضهم: "وآتاكم من كل ما سألتموه".

وقوله: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب، رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر (٦) من أن يحصيها (٧) العباد، ولكن أصبحوا توابين وامسوا توابين.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: **"اللَّهُمَّ، لَكَ الْحَمْدُ غَيْرَ مَكْفِيّ وَلَا مودَع، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا"**[(١)].

(١) البخاري (٥٤٥٨).

وَقَدْ رُوِيَ فِي الْأَثَرِ[١]: أَنَّ داود، عليه السلام، قال: يارب، كَيْفَ أَشْكُرُكَ وَشُكْرِي لَكَ نِعْمَةٌ مِنْكَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: الْآنَ شَكَرْتَنِي يَا دَاوُدُ، أَيْ: حِينَ اعْتَرَفْتَ بِالتَّقْصِيرِ عَنْ أَدَاءِ شُكْرِ النِّعَمِ.

وقال الشافعي، رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة (٦) توجب على مؤدى ماضي نعمه بأدائها، نعمة حادثة توجب عليه شكره بها (٧).

وقال القائل في ذلك:

لَـوْ كُـلُّ جَارِحَـةٍ مِنِّـي لَهَـا لُغَـةٌ ... تُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا أولَيتَ مِنْ حَسَنِ
لَكَـانَ مَـا زَادَ شُكرِي إِذْ شَكَرتُ بِهِ ... إِلَيكَ أَبلَغَ فِي الإحسَانِ والمِنَنِ

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ وفيه خمسة أقوال:

أحدها: أن المعنى: من كل الذي سألتموه، قاله الحسن، وعكرمة.

والثاني: من كل ما سألتموه، لو سألتوه، قاله الفراء.

والثالث: وآتاكم من كل شيء سألتموه شيئًا، فأضمر الشيء، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النمل ٢٣] أي، من كل شيء في زمانها شيئًا، قاله الأخفش.

والرابع: من كل ما سألتموه، وما لم تسألوه، لأنكم لم تسألوا شمسًا ولا قمرًا ولا كثيرًا من النِّعم التي ابتدأكم بها، فاكتُفي بالأول من الثاني، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل ٨١]، قاله ابن الأنباري.

---

(١) وهذا مما لا سند له تقوم به الحجة.

MOSTAFAALADWY.COM

والخامس: على قراءة ابن مسعود، وأبي رزين، والحسن، وعكرمة، وقتادة، وأبان عن عاصم، وأبي حاتم عن يعقوب: «من كلٍّ ما» بالتنوين من غير إضافة، فالمعنى: آتاكم من كُلٍّ ما لم تسألوه، قاله قتادة، والضحاك.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنعامه ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ لا تُطيقوا الإتيان على جميعها بالعَدِّ لكثرتها. ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ قال ابن عباس: يريد أبا جهل. وقال الزجاج: الإنسان اسم للجنس يُقصَد به الكافر خاصة.

قوله تعالى: ﴿لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ الظَّلوم هاهنا: الشاكرُ غيرَ مَن أنعم عليه، والكَفَّار: الجحود لنِعم الله تعالى.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى: أنه وحده {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ} على اتساعهما وعظمهما، {وَأَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} وهو: المطر الذي ينزله الله من السحاب، {فَأَخْرَجَ} بذلك الماء {مِنَ الثَّمَرَاتِ} المختلفة الأنواع {رِزْقًا لَكُمْ} ورزقا لأنعامكم {وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ} أي: السفن والمراكب.

{لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ} فهو الذي يسر لكم صنعتها وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجاراتكم، وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه.

{وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنْهَارَ} لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها.

{وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ} لا يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم، {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ} لتسكنوا فيه {وَالنَّهَارَ} مبصرا لتبتغوا من فضله.

MOSTAFAALBADWY.COM

{وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} أي: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم مما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك.

{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا} فضلا عن قيامكم بشكرها {إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرئ على المعاصي مقصر في حقوق ربه كفَّار لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره، وذكره ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه، آناء الليل والنهار، كما أن نعمه تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

❁ ❁ ❁

MOSTAFAALABBY.COM

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ
ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ
عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي
زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا
نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ
٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١ ﴾

[إبراهيم: ٣٥-٤١]

MOSTAFAALADWY.COM

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ءَامِنًا - وَٱجْنُبْنِي - ٱلْأَصْنَامَ - أَضْلَلْنَ - فَإِنَّهُۥ مِنِّي - بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ -أَفْـِٔدَةً - تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ - عَلَى ٱلْكِبَرِ - وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ - يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ءَامِنًا﴾	سالمًا من السوء والمكروه ومحفوظًا من الشر - مؤمنا لا يُعتدى على أهله.
﴿وَٱجْنُبْنِي﴾	باعدني - اصرفني.
﴿ٱلْأَصْنَامَ﴾	الأوثان التي تعبد من دون الله (حجارة وأشجار يعبدونها) من دون الله.
﴿أَضْلَلْنَ﴾	تسببن في انصراف الناس عن الحق.
﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾	فإنه على سنتي وطريقتي.
﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾	بواد ليس فيه زرع ولا ثمر.
﴿أَفْـِٔدَةً﴾	قلوبًا.
﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾	تميل إليهم وتذهب إليهم - تحبهم وتوقرهم.
﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾	وأنا كبير السن.
﴿وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾	تقبل عبادتي - استجب دعائي.
﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾	يوم القيامة الذي فيه حساب العباد.

MOSTAFAALADWY.COM

على الشخص مهما كان أن يسأل الله الثبات فالقلوب يقلبها الرحمن ﷻ

س: في قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ ما يدل على أن الشخص لا يأمن على نفسه وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو إمام في التوحيد سأل ربَّه أن يصرف عنه وعن بنيِّه عبادة الأصنام فإنه عَلَيْهِ السَّلَامُ علم أن الذي يصرف عنه عبادة الأصنام هو الله وأن الذي يثبته هو الله.

وقد أشار عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا المعنى، إذ قال في محاجته لقومه: ﴿ ﴾ أي: لو شاء الله لي أن أخشى أصنامكم لخشيتها، وهكذا قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿ ﴾.

ولذا كان من دعاء رسول الله ﷺ: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك**»، وكان من دعاء أولي الألباب: ﴿ ﴾.

وكانت يمين النبي ﷺ: «**لا ومقلب القلوب**»[(١)].

❁ ❁ ❁

س: ما توجيه قول الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ وقد عُلم أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.؟

ج: توجيه ذلك من وجهين:

أحدهما: أن يقال ومن عصاني فإنك يا رب قادر على هدايته، ومن ثَمَّ مغفرته ورحمته تغفر له وترحمه.

(١) البخاري (٦٦٢٨)، وله ألفاظ أُخر عند البخاري (٧/ ٦٦) وغيره، منها كثيرًا ما كان النبي ﷺ يحلف: «**لا ومقلب القلوب**».

MOSTAFAALADWY.COM

الثاني: أنه قال ذلك قبل أن يعلم أن الشرك بالله لا يغفر. كما قال تعالى: ﴿﴾. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

ذكر نبي الله إبراهيم عليه السلام

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: واذكر يا رسول الله قول إبراهيم عليه السلام إذ دعا ربَّه عز وجل قائلًا: رب اجعل هذا البلدن - ويريد: مكة والحرم - آمنًا من السوء والمكروه وآمنًا بما يقتضيه معنى الأمن، ومعنى كونها حرامًا فمن ذلك كونها لا يعضد شوكها ولا ينفر صيدها ولا يختلى خلاها ولا تلتقط لقطتها..

ثم إن إبراهيم عليه السلام يدعو ربَّه قائلًا، وباعدني يا رب عن عبادة الأصنام أنا وأبنائي ﴿﴾ أي: الأصنام ﴿﴾ بسببهن ضلَّ كثيرٌ من الناس عن طريق الحق، فمن تبعني يا رب، فآمن بك ووحدك وأخلص لك فإنه مني مستنٌّ بسنتي عامل بطريقتي، ومن عصاني فإنك قادر على هدايته ومن ثَمَّ على المغفرة له ورحمته.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: (و) اذكر يا محمد (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا) يعني الحَرَم، بلدا آمنا أهله وسكانه (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ) يقال منه: جَنَبْته الشرّ فأنا أَجْنُبُه جَنْبا وجَنَّبته الشر، فأنا أجَنِّبه تجنيبا،

MOSTAFAALADWY.COM

وأجنبته ذلك فأنا أُجْنِبه إجنابا.

ثم قال:

ومعنى ذلك: أبعدْني وبنيّ من عبادة الأصنام، والأصنام: جمع صنم، والصنم: هو التمثال المصوّر.

وقوله (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ) يقول: يا ربّ إن الأصنام أضللن: يقول: أزللن كثيرا من الناس عن طريق الهُدى وسبيل الحق حتى عبدوهنّ، وكفروا بك.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: (إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ) يعني الأوثان.

وقوله (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي) يقول: فمن تبعني على ما أنا عليه من الإيمان بك وإخلاص العبادة لك وفراق عبادة الأوثان، فإنه مني: يقول: فإنه مستنّ بسنَّتِي، وعامل بمثل عملي (وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يقول: ومن خالف أمري فلم يقبل مني ما دعوته إليه، وأشرك بك، فإنه غفور لذنوب المذنبين الخَطائين بفضلك، ورحيم بعبادك تعفو عمن تشاء منهم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) اسمعوا إلى قول خليل الله إبراهيم لا والله ما كانوا طَعَّانين ولا لعَّانين، وكان يقال: إنّ من أشرّ عباد الله كلّ طعان لعان، قال نبيّ الله ابن مريم عليه السلام (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

وأورد الطبري بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ

تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، وقال عيسى (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فرفع يديه ثم قال: اللَّهُمَّ أُمَّتِي، اللَّهُمَّ أُمَّتِي، وبكى، فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فاسأله ما يُبكيه؟ فأتاه جبرئيل فسأله، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال، قال: فقال الله: يا جبرئيل اذهب إلى محمد وقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءُك[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يذكر تعالى في هذا المقام محتجا على مشركي العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه، آهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: {رب اجعل هذا البلد آمنا} وقد استجاب الله له، فقال تعالى: {أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم} [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: {إن أول بيت وضع للناس للذي (١) ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا} [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال في هذه القصة: {رب اجعل هذا البلد آمنا} فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: {الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق} [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضا فقال: {رب اجعل هذا بلدا آمنا} [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولا.

---

(١) وأخرجه مسلم بنحوه (٣٤٦).

MOSTAFAALDWY.COM

وقال: {واجنبني وبني أن نعبد الأصنام} ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس وأنه برئ ممن عبدها، ورد أمرهم (٢) إلى الله، إن شاء عذبهم (٣) وإن شاء غفر لهم (٤) كما قال عيسى، عليه السلام: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} [المائدة: ١١٨] ، وليس في هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز (٥) وقوع ذلك.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) يعني مكة وقد مضى في" البقرة" «١» . (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) أي اجعلني جانبا عن عبادتها، وأراد بقوله:" اجنبني" بنيه من صلبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنما. وقيل: هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له. وقرأ الجحدري وعيسى" وأجنبني" بقطع الألف والمعنى واحد، يقال: جنبت ذلك الأمر، وأجنبته وجنبته إياه فتجانبه واجتنبه أي تركه. وكان إبراهيم التيمي يقول في قصصه: من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول" واجنبني وبني أن نعبد الأصنام" كما عبدها أبي وقومي. قوله تعالى: (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) لما كانت سببا للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازا، فإن الأصنام جمادات لا تفعل «٢» . (فمن تبعني) في التوحيد. (فإنه مني) أي من أهل ديني. (ومن عصاني) أي أصر على الشرك. (فإنك غفور رحيم) قيل: قال هذا قبل أن يعرفه الله إن الله لا يغفر أن يشرك به. وقيل: غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت. وقال مقاتل بن حيان:" ومن عصاني" فيما دون الشرك.

وقال ابن الجوزي في (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ﴾ أي: جنِّبني وإياهم، والمعنى: ثبِّتني على اجتناب عبادتها. ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ يعني: الأصنام، وهي لا توصَف بالإضلال ولا بالفعل، ولكنهم لما ضلّوا بسببها، كانت كأنها أضلَّتهم. ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ أي: على ديني التوحيد ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ أي: فهو على مِلَّتي، ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ومن عصاني ثم تاب فانك غفور رحيم، قاله السدي.

والثاني: ومن عصاني فيما دون الشرك، قاله مقاتل بن حيان.

والثالث: ومن عصاني فكفر فإنك غفور رحيم أن تتوب عليه فتهديه إلى التوحيد، قاله مقاتل بن سليمان. وقال ابن الأنباري: يحتمل أن يكون دعا بهذا قبل أن يُعلِمه الله تعالى أنه لا يغفر الشرك كما استغفر لأبيه.

وقال الشنقيطي (أضواء البيان):

قوله تعالى: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} الآية،لم يبين هنا هل أجاب دعاء نبيه إبراهيم هذا، ولكنه بين في مواضع أُخر أنه أجابه في بعض ذريته دون بعض، كقوله: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} [٣٧/ ١١٣]، وقوله: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} الآية [٤٣/ ٢٨].

قوله تعالى: {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} الآية، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال: إن من تبعه فإنه منه وأنه رد أمر من لم يتبعه إلى مشيئة الله تعالى إن شاء الله غفر له؛ لأنه هو الغفور الرحيم، وذكر نحو هذا عن عيسى ابن مريم في قوله: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [٥/ ١١٨]، وذكر عن نوح وموسى

التشديد في الدعاء على قومهما، فقال عن نوح إنه قال: {رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً} إلى قوله: {فَاجِراً كَفَّاراً} [٧١/ ٢٦، ٢٧]، وقال عن موسى إنه قال: {رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [١٠/ ٨٨]، والظاهر أن نوحًا وموسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ما دعوا ذلك الدعاء على قومهما إلا بعد أن علما من الله أنهم أشقياء في علم الله لا يؤمنون أبداً، أما نوح فقد صرح الله تعالى له بذلك في قوله: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ} [١١/ ٣٦]، وأما موسى فقد فهم ذلك من قول قومه له: {مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [٧/ ١٣٢]، فإنهم قالوا هذا القول بعد مشاهدة تلك الآيات العظيمة المذكورة في "الأعراف" وغيرها.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أن إبراهيم عليه السلام يدعو ربَّه ويواصل الدعاء قائلًا: ربنا إني أسكنت ﴿﴾ بعض ذريتي وهم إسماعيل عليه السلام مع أمه هاجر ﴿﴾ لا زرع فيه ﴿﴾ بمكة ﴿﴾ يا ربنا ﴿﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: ربنا اجعلهم يقيموا الصلاة، الثاني: ربنا قد أسكنتهم عند بيتك المحرم ليصلوا هنالك.هذا، وقوله: ﴿﴾ أي: قلوبًا ﴿﴾ تذهب إليهم في هذا المكان وتحبهم وتحب سكنى هذا البلد الحرام ﴿﴾ كي يقدموا شكرًا لك وحمدًا لك.

MOSTAFALABIB.COM

هذا، ولقد استجاب الله دعوة خليله إبراهيم عليه السلام، فقال تعالى: ﴿﴾ أي: جعلنا الناس يثوبون إليه، يرجعون إليه بعد أن ينصرفوا عن محبة فيه، ولذلك نرى من اعتمر وحجَّ يُحب أن يرجع إليه ثانية للاعتمار والحج.

وهذه بعض أقوال العلماء في تفسير الآية الكريمة.

قال الطبري رحمه الله:

وقال إبراهيم خليل الرحمن هذا القول حين أسكن إسماعيل وأمه هاجَرَ -فيما ذُكِر- مكة.

وأورد الطبري آثارًا في أسانيدها مقال، ومنها ما هو قابل للتحسين، وذلك ما أورده من طريق حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: جاء نبيّ الله إبراهيم بإسماعيل وهاجر، فوضعهما بمكة في موضع زمزم، فلما مضى نادته هاجر: يا إبراهيم إنما أسألك ثلاث مرات: من أمرك أن تضعني بأرض ليس فيها ضَرْع ولا زرع، ولا أنيس، ولا زاد ولا ماء؟ قال: ربي أمرني، قالت: فإنه لن يضيِّعنا قال: فلما قفا إبراهيم قال (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ) يعني من الحزن (وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ) . فلما ظمئ إسماعيل جعل يَدْحَض الأرض بعقبه، فذهبت هاجر حتى علت الصفا، والوادي يومئذ لاخ، يعني عميق، فصعدت الصفا، فأشرفت لتنظر هل ترى شيئا؟ فلم تر شيئا، فانحدرت فبلغت الوادي، فسعت فيه حتى خرجت منه، فأتت المروة، فصعدت فاستشرفت هل ترى شيئا، فلم تر شيئا. ففعلت ذلك سبع مرّات، ثم جاءت من المروة إلى إسماعيل، وهو يَدْحَض الأرض بعقبه،وقد نبعت العين وهي زمزم. فجعلت تفحص الأرض بيدها عن الماء، فكلما اجتمع ماء أخذته بقدحها، وأفرغته في

سقائها. قال: فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: يَرْحَمُها اللهُ لَوْ تَرَكَتْها لَكانَتْ عَيْنا سائِحَةً تَجْرِي إلى يَوْمِ القِيامَةِ". قال: وكانت جُرهُمُ يومئذ بواد قريب من مكة، قال: ولزمت الطير الوادي حين رأت الماء، فلما رأت جرهم الطير لزمت الوادي، قالوا: ما لزمته إلا وفيه ماء، فجاءوا إلى هاجرَ، فقالوا: إن شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك، قالت: نعم. فكانوا معها حتى شبّ إسماعيل، وماتت هاجر فتزوّج إسماعيل امرأة منهم، قال: فاستأذن إبراهيم سارة أن يأتي، هاجر، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، فقدم إبراهيم وقد ماتت هاجر، فذهب إلى بيت إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ليس ههنا ذهب يتصيد، وكان إسماعيل يخرج من الحرم فيتصيد ثم يرجع، فقال إبراهيم: هل عندك ضيافة، هل عندك طعام أو شراب؟ قالت: ليس عندي، وما عندي أحد. فقال إبراهيم: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: فليغير عتبة بابه! وذهب إبراهيم، وجاء إسماعيل، فوجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ فقالت: جاءني شيخ كذا وكذا، كالمستخفة بشأنه، قال: فما قال لك؟ قالت: قال لي: أقرئي زوجك السلام وقولي له: فليغير عتبة بابه، فطلقها وتزوج أخرى. فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل، فأذنت له، وشرطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يصيد، وهو يجيء الآن إن شاء الله، فأنزل يرحمك الله قال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، قال: هل عندك خبز أو بر أو تمر أو شعير؟ قالت: لا. فجاءت باللبن واللحم، فدعا لهما بالبركة، فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله برا وشعيرا وتمرا، فقالت له: أنزل حتى أغسل رأسك، فلم ينزل،

فجاءته بالمقام فوضعته عن شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه، فبقي أثر قدمه عليه، فغسلت شق رأسه الأيمن، ثم حوّلت المقام إلى شقه الأيسر فغسلت شقه الأيسر، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام، وقولي له: قد استقامت عتبة بابك، فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ فقالت: نعم، شيخ أحسن الناس وجها وأطيبه ريحا، فقال لي كذا وكذا، وقلت له كذا وكذا، وغسلتُ رأسه، وهذا موضع قدمه على المقام. قال: وما قال لك؟ قالت: قال لي: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك، قال: ذاك إبراهيم، فلبث ما شاء الله أن يلبث، وأمره الله ببناء البيت، فبناه هو وإسماعيل، فلما بنياه قيل: أذن في الناس بالحجّ، فجعل لا يمرّ بقوم إلا قال: أيها الناس إنه قد بني لكم بيت فحجوه، فجعل لا يسمعه أحد، صخرة ولا شجرة ولا شيء، إلا قال: لبيك اللهم لبيك. قال: وكان بين قوله (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) وبين قوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) كذا وكذا عاما، لم يحفظ عطاء.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قال قائل: وكيف قال إبراهيم حين أسكن ابنه مكة (إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) وقد رويت في الأخبار التي ذكرتها أن إبراهيم بنى البيت بعد ذلك بمدة. قيل: قد قيل في ذلك أقوال قد ذكرتها في سورة البقرة، منها أن معناه: عند بيتك المحرّم الذي كان قبل أن ترفعه من الأرض حين رفعته أيام الطوفان، ومنها عند بيتك المحرم من استحلال حرمات الله فيه، والاستخفاف بحقه. وقوله (رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ) يقول:

فعلت ذلك يا ربنا كي تؤدّى فرائضك من الصلاة التي أوجبتها عليهم في بيتك المحرّم. وقوله (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) يخبر بذلك تعالى ذكره عن خليله إبراهيم أنه سأله في دعائه أن يجعل قلوب بعض خلقه تنزع إلى مساكن ذريته الذين أسكنهم بواد غير ذي زرع عند بيته المحرَّم. وذلك منه دعاء لهم بأن يرزقهم حج بيته الحرام.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن مجاهد: (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) قال: لو كانت أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم، ولكنه أفئدة من الناس.

وبإسنادٍ صحيح عن الحكم قال: سألت عكرمة عن هذه الآية (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) فقال: قلوبهم تهوي إلى البيت.

وقال الطبري:

حدثنا الحسن، قال: ثنا يحيى بن عباد، قال: ثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لو كان إبراهيم قال: فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم لحجه اليهود والنصارى والناس كلهم، ولكنه قال (أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) .

وقال آخرون: إنما دعا لهم أن يهووا السكنى بمكة.

وقوله (وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ) يقول تعالى ذكره: وارزقهم من ثمرات النبات والأشجار ما رزقت سكان الأرياف والقرى التي هي ذوات المياه والأنهار، وإن كنت أسكنتهم واديا غير ذي زرع ولا ماء. فرزقهم جلّ ثناؤه ذلك.

وقوله (لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) يقول: ليشكروك على ما رزقتهم وتنعم به

MOSTAFAALADWY.COM

عليهم.

قلت: وقد أخرج البخاري[١] في صحيحه من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ، خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ، وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ، فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا؟ قَالَ: إِلَى اللهِ، قَالَتْ: رَضِيتُ بِاللهِ، قَالَ: فَرَجَعَتْ فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى لَمَّا فَنِيَ المَاءُ، قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا، قَالَ فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا فَنَظَرَتْ، وَنَظَرَتْ هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا، فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، فَلَمَّا بَلَغَتِ الوَادِيَ سَعَتْ وَأَتَتِ المَرْوَةَ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ، تَعْنِي الصَّبِيَّ، فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا، فَقَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ، لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا، فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ، فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ، فَقَالَتْ: أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ، فَإِذَا جِبْرِيلُ، قَالَ: فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا، وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الأَرْضِ، قَالَ: فَانْبَثَقَ المَاءُ، فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَعَلَتْ تَحْفِزُ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ تَرَكَتْهُ كَانَ المَاءُ ظَاهِرًا» . قَالَ: فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ المَاءِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، قَالَ: فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمَ بِبَطْنِ الوَادِي، فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَاكَ، وَقَالُوا: مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ، فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرَ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ، فَأَتَوْا إِلَيْهَا

(١) البخاري (٣٣٦٥).

فَقَالُوا: يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكِ، أَوْ نَسْكُنَ مَعَكِ، فَبَلَغَ ابْنُهَا فَنَكَحَ فِيهِمُ امْرَأَةً، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي، قَالَ: فَجَاءَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، قَالَ: قُولِي لَهُ إِذَا جَاءَ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ، قَالَ: أَنْتِ ذَاكِ، فَاذْهَبِي إِلَى أَهْلِكِ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي، قَالَ: فَجَاءَ، فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، فَقَالَتْ: أَلَا تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ وَتَشْرَبَ، فَقَالَ: وَمَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ وَشَرَابُنَا المَاءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ» قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي، فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمَ يُصْلِحُ نَبْلًا لَهُ، فَقَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا، قَالَ: أَطِعْ رَبَّكَ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ، قَالَ: إِذَنْ أَفْعَلَ، أَوْ كَمَا قَالَ: قَالَ فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧]. قَالَ: حَتَّى ارْتَفَعَ البِنَاءُ، وَضَعُفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الحِجَارَةِ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ المَقَامِ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيدا ورغبة إلى الله، عز وجل؛ ولهذا قال: {عند بيتك المحرم}

وقوله: {ربنا ليقيموا الصلاة} قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: "المحرم"

أي: إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده.

{فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم} قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: "أفئدة الناس" لازدحم عليه فارس والروم واليهود (١) والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: {من الناس} فاختص به المسلمون.

وقوله: {وارزقهم من الثمرات} أي: ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك وكما أنه {واد غير ذي زرع} فاجعل لهم ثمارا يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: {أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا} [القصص: ٥٧] وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

وقال الشنقيطي (أضواء البيان):

قوله تعالى: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ} الآية، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام دعا لذريته الذين أسكنهم بمكة المكرمة أن يرزقهم الله من الثمرات، وبين في" سورة البقرة" أن إبراهيم خص بهذا الدعاء المؤمنين منهم، وأن الله أخبره أنه رازقهم جميعاً مؤمنهم وكافرهم ثم يوم القيامة يعذب الكافر، وذلك بقوله: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً} الآية [٢/ ١٢٦]، قال بعض العلماء: سبب تخصيص إبراهيم المؤمنين في هذا الدعاء بالرزق، أنه دعا لذريته أولاً أن يجعلهم الله أئمة ولم يخصص بالمؤمنين، فأخبره الله أن الظالمين من ذريته لا يستحقون ذلك، قال تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ

بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [٢/ ١٢٤]، فلما أراد أن يدعو لهم بالرزق، خص المؤمنين بسبب ذلك فقال: {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} فأخبره الله أن الرزق ليس كالإمامة، فالله يرزق الكافر من الدنيا ولا يجعله إمامًا، ولذا قال له في طلب الإمامة: {لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، ولما خص المؤمنين بطلب الرزق، قال له: {وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً} الآية [٢/ ١٢٦].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} .

وذلك أنه أتى بـ "هاجر" أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو في الرضاع، من الشام حتى وضعهما في مكة وهي -إذ ذاك- ليس فيها سكن، ولا داع ولا مجيب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء فقال -متضرعا متوكلا على ربه: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي} أي: لا كل ذريتي لأن إسحاق في الشام وباقي بنيه كذلك وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته، وقوله: {بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ} أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة.

{رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ} أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية فمن أقامها كان مقيما لدينه، {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} أي: تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه.

فأجاب الله دعاءه فأخرج من ذرية إسماعيل محمدا صلى الله عليه وسلم حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي وإلى ملة أبيهم إبراهيم فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة.

MOSTAFAALADWY.COM

وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم وجعل فيه سرا عجيبا جاذبا للقلوب، فهي تحجه ولا تقضي منه وطرا على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه وعظم ولعه وتوقه، وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة.

{وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} فأجاب الله دعاءه، فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت والثمار فيها متوفرة والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ ولم يكن هناك بيت حينئذ، إنما بناه إبراهيم بعد ذلك بمُدَّة؟ فالجواب من ثلاثة وجوه.

أحدها: أن الله تعالى حرَّم موضع البيت منذ خلق السموات والأرض، قاله ابن السائب.

والثاني: عند بيتك الذي كان قبل أن يُرفَع أيام الطوفان.

والثالث: عند بيتك الذي قد جرى في سابق علمك أنه يحدث هاهنا

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

ج: هذا قول إبراهيم عليه السلام يقول: يا ربنا إنك تعلم ما تخفيه في صدورنا ولم يبح به لأحد تعلم يا رب نيتي من إقامة أهلي عند بيتك المحرم، وتعلم يا

رب ما نظهره من أعمالنا، لا يخفى يا رب عليك شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

فهذا توسل من إبراهيم عليه السلام بثنائه على الله وإقراره بعلم الله عز وجل، وكذا توسلٌ من إبراهيم بصالح نواياه عليه السلام، أي: يا رب أنت تعلم نيتي وقصدي وأنه خيرٌ فيا رب لا تخذلني، ويا رب استجب دعائي، ثم يُقدِّم حمدًا لله بعد الثناء على الله، قائلًا الحمد لله الذي ﴿﴾ رزقني على كبر سني، فقد كان لا يولد له عليه السلام - إسماعيل وإسحاق ﴿﴾ ففي هذا دليل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو الله عز وجل بالذرية الصالحة، ثم يسأل إبراهيم عليه السلام ربَّه عز وجل أن يعينه على المحافظة على إقامة الصلاة وعدم التخلي عنها، يسأل الله ذلك لنفسه ولذريته، قائلًا: ﴿﴾ محافظًا عليها مداومًا ﴿﴾ أي: واجعل من ذريتي من هو مقيم للصلاة مداومًا عليها محافظًا.

هذا، وقوله: ﴿﴾ في قوله: ﴿﴾ إما أن تكون زائدة لتقوية الكلام، أي: واجعل ذريتي مقيمة للصلاة، أو تكون بمعنى (في) ويكون المعنى، وفي ذريتي إقامة الصلاة، وهذا إحسانًا للظنِّ بإبراهيم عليه السلام إذ لا يتصور أنه يدعو ربَّه أن تكون بعض ذريته مقيمة للصلاة دون البعض. والله أعلم.

هذا، وقد قال تعالى عن إبراهيم وإسحاق عليهما السلام: ﴿﴾، والله أعلم.

أما قوله: ﴿﴾ فمحتمل لأمرين: أحدهما:

وتقبل عبادتي وقرباتي التي أتقرب بها إليك.

والثاني: واستجب دعائي.

ثم يدعو إبراهيم عليه السلام بالمغفرة بادئًا بنفسه ﴿﴾ ثم لوالديه بقوله: ﴿﴾

وهذا قبل أن يعلم أن اباه عدوٌّ لله. أمَّا أمه فلم يرد أنه نُهي عن الدعاء لها، فالظاهر أنها كانت مسلمة لذلك ثم عممَّ الدعاء للمؤمنين بقوله: ﴿﴾ أي: يوم القيامة عندما تحاسب الناس.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن استشهاد خليله إبراهيم إياه على ما نوى وقصد بدعائه وقيله (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ) ... الآية، وأنه إنما قصد بذلك رضا الله عنه في محبته أن يكون ولده من أهل الطاعة لله، وإخلاص العبادة له على مثل الذي هو له، فقال: ربنا إنك تعلم ما تخفي قلوبنا عند مسألتنا ما نسألك، وفي غير ذلك من أحوالنا، وما نعلن من دعائنا، فنجهر به وغير ذلك من أعمالنا، وما يخفى عليك يا ربنا من شيء يكون في الأرض ولا في السماء، لأن ذلك كله ظاهر لك متجل باد، لأنك مدبره وخالقه، فكيف يخفى عليك.

وقال في تأويل قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) }.

يقول: الحمد لله الذي رزقني على كبر من السنّ ولدا إسماعيل وإسحاق (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) يقول: إن ربي لسميع دعائي الذي أدعوه به، وقولي (اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ) وغير ذلك من دعائي ودعاء غيري، وجميع ما نطق به ناطق لا يخفى عليه منه شيء.

وقال في تأويل قوله تعالى: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) }.

MOSTAFABOOKS.COM

يقول: ربّ اجعلني مؤدّيا ما ألزمتني من فريضتك التي فرضتها عليّ من الصلاة. (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) يقول: واجعل أيضا من ذريتي مقيمي الصلاة لك. (رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) يقول: ربنا وتقبل عملي الذي أعمله لك وعبادتي إياك. وهذا نظير الخبر الذي رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنَّ الدُّعاءَ هُوَ العِبادَةُ" ثم قرأ (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .

وقال في تأويل قوله تعالى: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)}.

وهذا دعاء من إبراهيم صلوات الله عليه لوالديه بالمغفرة، واستغفار منه لهما. وقد أخبر الله عز ذكره أنه لم يكن (اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) .

وقد بيَّنا وقت تبرّئه منه فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

وقوله (وَلِلْمُؤْمِنِينَ) يقول: وللمؤمنين بك ممن تبعني على الدين الذي أنا عليه، فأطاعك في أمرك ونهيك. وقوله (يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) يعني: يقوم الناس للحساب، فاكتفى بذكر الحساب من ذكر الناس، إذ كان مفهوما معناه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم خليله أنه قال: {ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن} أي: أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء.

MOSTAFAALBDWY.COM

ثم حمد ربه، عز وجل، على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: {الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء} أي: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته (٢) من الولد.

ثم قال: {رب اجعلني مقيم الصلاة} أي: محافظا عليها مقيما لحدودها {ومن ذريتي} أي: واجعلهم كذلك مقيمين (٣) الصلاة {ربنا وتقبل دعاء} أي: فيما سألتك فيه كله.

{ربنا اغفر لي ولوالدي} وقرأ بعضهم: "ولوالدي"، على الإفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه (٤) لما تبين له عداوته (٥) لله، عز وجل، {وللمؤمنين} أي: كلهم {يوم يقوم الحساب} أي: يوم تحاسب عبادك فتجزيهم (٦) بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ} الآية، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم طلب المغفرة لوالديه، وبين في آيات أخر أن طلبه الغفران لأبيه إنما كان قبل أن يعلم أنه عدو لله، فلما علم ذلك تبرأ منه كقوله: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} [٩/ ١١٤]، ونحو ذلك من الآيات.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(الحمد لله الذي وهب لي على الكبر) أي على كبر سني وسن امرأتي، قال ابن عباس[١]: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة. وإسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جبير: بشر إبراهيم بإسحاق بعد عشر

(١) ولم أقف على سند صحيح عن ابن عباس بهذا.

ومائة سنة. (إن ربي لسميع الدعاء) . قوله تعالى: (رب اجعلني مقيم الصلاة) أي من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. (ومن ذريتي) أي واجعل من ذريتي من يقيمها. (ربنا وتقبل دعاء) أي عبادتي كما قال:" وقال ربكم ادعوني أستجب لكم" «١» [غافر: ٦٠] . وقال عليه السلام:" الدعاء مخ العبادة" وقد تقدم في "البقرة" «٢» . (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين) قيل: استغفر إبراهيم لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله. قال القشيري: ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه.

❁ ❁ ❁

MOSTAFAALDWY.COM

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ
تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ
وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ
أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ
ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ
مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ
رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ
وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ
فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾
لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٞ
لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

[إبراهيم: ٤٢-٥٢]

MOSTAFAALDWY.COM

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ - ٱلْمُتَّقُونَ - أُكُلُهَا دَآئِمٌ - وَظِلُّهَا - عُقْبَى - وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ - ٱلْأَحْزَابِ - يُنكِرُ بَعْضَهُۥ - مَتَابِ - حُكْمًا عَرَبِيًّا - وَلِيٍّ - وَاقٍ - وَذُرِّيَّةً - بِـَٔايَةٍ - لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ - يَمْحُواْ ٱللَّهُ - وَيُثْبِتُ - أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ - نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ - لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ - مَكَرَ - ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا - تَكْسِبُ - عُقْبَى ٱلدَّارِ - عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾	صفة الجنة - شبه الجنة.
﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾	الذي اتقوا الشرك والكبائر.
﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾	ثمرها وطعامها دائم لا يزول ولا ينتقص.
﴿وَظِلُّهَا﴾	ظل أشجارها (دائم أيضًا).
﴿عُقْبَى﴾	العاقبة (الحسنة لأهل التقوى).
﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾	الذين أنزلنا عليى نبيهم الكتاب فتعلموه، وقيل: إنهم اليهود والنصارى الذين آمنوا، وقيل: هم أصحاب محمد ﷺ.
﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾	الأحزاب الكافرة من كفار المشركين وكفار اليهود، والنصارى الذين لم يؤمنوا وغيرهم من أهل الكفر.
﴿يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾	يكفر ببعضه ويقول: ليس هو من عند الله.

MOSTAFALADAWY.COM

﴿مَئَابِ﴾	مرجع، والمراد مرجعي يوم القيامة - مصيري.
﴿حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾	أحكامًا وشرائع بلسان عربيٍّ، وقيل: دينًا عربيًّا، وقيل: محكمًا معربًا.
﴿وَلِيّٖ﴾	نصير - متولي أمرك.
﴿وَاقٖ﴾	من يقيك الشر والعذاب - دافع يدفع عنك الشر والعذاب.
﴿وَذُرِّيَّةٗ﴾	أبناء وأحفاد.
﴿بِـَٔايَةٍ﴾	بمعجزة.
﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾	لكل مدة زمنية كتاب مكتوب فيه ما سيعمل منها، وقيل هنا تقديم وتأخير والمعنى لكل كتاب نزل زمن يعمل به فيه.
﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ﴾	يُزيل - يُغيِّر - يُبدل.
﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾	يترك بلا تغيير ولا إزالة.
﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾	أصل الكتاب الذي يرجع إليه.
﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾	نفتحها لرسول الله ﷺ فيضيق الخناق على الكفار. وقيل: نقبض علمائها وفقهاءها، وقيل: نقلل بركتها وثمارها، وقيل: ندمر بعض البلاد كي يتعظ الآخرون.
﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾	لا راد لقضائه - لا يتعقبه أحد.
﴿مَكَرَ﴾	كاد - تآمر.

MOSTAFAALADWY.COM

﴿ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾	الكيد والمكر والتدبير.
﴿تَكْسِبُ﴾	تعمل.
﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾	العاقبة (الحسنة) في الدار الآخرة للمؤمنين، والعاقبة (السيئة) لأهل الكفر.
﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾	علم التوراة والإنجيل - وقيل: العلم بالقرآن.

❁ ❁ ❁

MOSTAFAALADWY.COM

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: صفة الجنة التي وعدها الله ﷻ من اتقوا الشرك بالله، وعبدوا الله ووحدوه واتقوا محارمه ومساخطه صفتها: أنها تجري من تحتها الأنهار، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى.

والطعام والثمار الذي في الجنة لا يزول بل هو دائم كما قال تعالى: ﴿ ﴾، وكذلك ظلها دائم، فهذه هي العاقبة الحسنة للذين اتقوا، أما عاقبة الكافرين فيه النار والعياذ بالله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن أورد أقوالًا في تفسير قوله تعالى: ﴿ ﴾: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال ذكر (المثل) فقال: ﴿ ﴾ والمراد: الجنة، ثم وصفت الجنة بصفتها وليست صفتها شيئًا غيرها...

ثم قال:

وقوله: (أكلها دائمٌ وظلها)، يعني: ما يؤكل فيها، (٣) يقول: هو دائم لأهلها، لا ينقطع عنهم، ولا يزول ولا يبيد، ولكنه ثابتٌ إلى غير نهاية= (وظلها)، يقول: وظلها أيضًا دائم، لأنه لا شمس فيها. (٤)

(تلك عقبى الذين اتقَوْا)، يقول: هذه الجنة التي وصف جل ثناؤه، عاقبة الذين اتَّقَوا الله، فاجتنبوا مَعَاصيه وأدَّوْا فرائضه. (٥)

وقوله: (وعُقْبَى الكافرين النار)، يقول: وعاقبةُ الكافرين بالله النارُ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا قرن هذا بهذا؛ فقال: {مثل الجنة التي وعد المتقون} أي: صفتها

MOSTAFAALADWY.COM

ونعتها، {تجري من تحتها الأنهار} أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيرا، أي: يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كما قال تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم} [محمد: ١٥].

وقوله: {أكلها دائم وظلها} أي: فيها المطاعم (١) والفواكه والمشارب، لا انقطاع [لها] (٢) ولا فناء.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[١]، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ، وَفِيهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعت فَقَالَ: «**إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ -أَوْ: أُرِيتُ الْجَنَّةَ- فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا**».

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد قال تعالى: {وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة} [الواقعة: ٣٢، ٣٣] وقال {ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا} [الإنسان: ١٤].

وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا} [النساء: ٥٧].

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[٢] مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي

(١) البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).
(٢) البخاري (٣٢٥١)، ومسلم (٢٨٢٧).

MOSTAFAALBDWY.COM

الْجَنَّةِ شَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْمُجِدُّ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا»، ثُمَّ قَرَأَ: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ} [الْوَاقِعَةِ: ٣٠].

وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الجنة ويحذر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: {تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار} كما قال تعالى: {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} [الحشر: ٢٠].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: والذين أنزلنا على نبيهم الكتاب فآمنوا به وصدقوه يفرحون بالقرآن الذي ينزل عليك يا رسول الله.

أما من هم الذين عناهم الله بقوله: ﴿﴾، ففيهم قولان:

أحدهما: أنهم مؤمنوا أهل الكتاب، أي: الذين آمنوا من اليهود والنصارى.

والقول الثاني: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ الذين آمنوا به واتبعوه وصدقوه.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: ومن الأحزاب الكافرة من مشركي مكة واليهود والنصارى وغيرهم ممن تخربوا على الكفر من ينكر بعض هذا القرآن، ومن هذا البعض الذي ينكروه نبوة النبي ﷺ، وبعض أحكام الشريعة من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك، وكذا اسم الرحمن، وكذا البعث فإن كثيرين ينكرون ذلك.

فقل لهؤلاء الجاحدين المنكرين، إنما أُمرت أن أعبد الله وحده لا شريك

MOSTAFAALAQWY.COM

له، ولا اشرك في عبادته أحدًا، وإلى عبادة الله ﷻ لا شريك لـه أدعـو الخلـق، وإلى الله مصيري ومرجعي يوم القيامة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين أنزلنا إليهم الكتاب ممَّن آمن بك واتبعك، يا محمد، (يفرحون بما أنزل إليك) منه= (ومن الأحْزاب من ينكر بعضه) ، يقول: ومن أهل الملل المتحزِّبين عليك، وهم أهل أدْيان شَتَّى، (١) من ينكر بعضَ ما أنزل إليك. فقل لهم: (إنَّما أمرتُ) ، أيها القوم (أن أعبد الله) وحده دون ما سواه= (ولا أشرك به) ، فأجعل له شريكًا في عبادتي، فأعبدَ معه الآلهةَ والأصنامَ، بل أخلِص له الدين حَنِيفًا مسلمًا = (إليه أدعو) ، يقول: إلى طاعته وإخلاص العبادة له أدعو الناسَ= (وإليه مآب) ، يقول: وإليه مصيري.

وهو "مَفْعَل"، من قول القائل:"آبَ يَؤُوب أوْبًا ومَآبًا".

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) ، أولئك أصحابُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فرحوا بكتاب الله وبرسوله وصدَّقُوا به

قوله: (ومن الأحزاب من ينكر بعضه) ، يعني اليهودَ والنصارى.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) ، قال: هذا مَنْ آمنَ برسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب فيفرحون بذلك. وقرأ: (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ) [سورة يونس:٤٠] . وفي قوله: (ومن الأحزاب من ينكر بعضه) ، قال:"الأحزاب": الأممُ، اليهودُ والنصارى والمجوس منهم من آمنَ به،

ومنهم من أنكره.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: {والذين آتيناهم الكتاب} وهم قائمون بمقتضاه {يفرحون بما أنزل إليك} أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون} [البقرة: ١٢١] وقال تعالى: {قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا} [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أي: إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد صلى الله عليه وسلم لحقا وصدقا مفعولا لا محالة، وكائنا، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، {ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا} [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: {ومن الأحزاب من ينكر بعضه} أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك.

وقال مجاهد: {ومن الأحزاب} اليهود والنصارى، من ينكر بعضه ما جاءك من الحق. وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهذا كما قال تعالى: {وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب} [آل عمران: ١٩٩].

{قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به} أي: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، {إليه أدعو} أي: إلى سبيله أدعو

الناس، {وإليه مآب} أي: مرجعي ومصيري.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ومن الأحزاب) يعني مشركي مكة، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس. وقيل: هم العرب المتحزبون على النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: ومن أعداء المسلمون من ينكر بعض ما في القرآن، لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السماوات والأرض. (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) قراءة الجماعة بالنصب عطفا على" أعبد". وقرأ أبو خالد «٣» بالرفع على الاستئناف أي أفرده بالعبادة وحده لا شريك له، وأتبرأ عن المشركين، ومن قال: المسيح ابن الله وعزير ابن الله، ومن اعتقد التشبيه كاليهود. (إليه أدعوا) أي إلى عبادته أدعو الناس. (وإليه مآب) أي أرجع في أموري كلها.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} أي: منَّا عليهم به وبمعرفته، {يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} فيؤمنون به ويصدقونه، ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض، وتصديق بعضها بعضا وهذه حال من آمن من أهل الكتابين، {وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} أي: ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق، من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدقه.

{فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها} إنما أنت يا محمد منذر تدعوا إلى الله، {قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ} أي: بإخلاص الدين لله وحده، {إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ} أي: مرجعي الذي أرجع به إليه فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه والقيام بما أمرت به.

ذكر ابن الجوزي في زاد المسير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ ﴾ وبيان الذين يفرحون أقوالًا:

أحدها: أنهم مسلمو اليهود، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: هم عبد الله بن سلام وأصحابه.

والثاني: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ قاله قتادة.

والثالث: مؤمنو أهل الكتابين من اليهود والنصارى، ذكره الماوردي.

والذي أُنزل إِليه: القرآن، فرح به المسلمون وصدَّقوه، وفرح به مؤمنو أهل الكتاب، لأنه صدَّق ما عندهم. وقيل: إن عبد الله بن سلام ومن آمن معه من أهل الكتاب، ساءهم قِلَّة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذِكره في التوراة، فلما نزل ذِكره فرحوا، وكفر المشركون به، فنزلت هذه الآية.

فأما الأحزاب، فهم الكفار الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ بالمعاداة، وفيهم أربعة أقوال:

أحدها: أنهم اليهود والنصارى، قاله قتادة.

والثاني: أنهم اليهود والنصارى والمجوس، قاله ابن زيد.

والثالث: بنو أمية وبنو المغيرة وآل أبي طلحة بن عبد العزّى، قاله مقاتل.

والرابع: كفار قريش، ذكره الماوردي.

وفي بعضه الذي أنكروه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ذِكر الرحمن والبعثِ ومحمدٍ ﷺ، قاله مقاتل.

والثاني: أنهم عرفوا بعثة الرسول في كتبهم وأنكروا نبوَّته.

والثالث: أنهم عرفوا صِدقه، وأنكروا تصديقه، ذكرهما الماوردي.

❁ ❁ ❁

MOSTAFAALADWY.COM

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وكذلك انزلنا هذا القرآن عليك يا رسول الله أحكامًا بلسان عربيٍّ، ودينًا بلسانٍ عربي، وقيل مُحكمًا بلسان عربي ولئن اتبعت آراء هؤلاء الكفار وما تهواه نفوسهم من الغيِّ والضلال والفكر بعد ما جاءك من العلم في هذا الكتاب العزيز ما لك من الله من وليٍّ يتولاك ولا واقٍ يقيك عذاب الله ﷻ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وكما أنزلنا عليك الكتاب، يا محمد، فأنكرهُ بعض الأحزاب، كذلك أيضًا أنزلنا الحكم والدين حُكْمًا عربيًا (١) وجعل ذلك (عربيًا)، ووصفه به لأنه أنزل على محمدٍ صلى الله عليه وسلم وهو عربيٌّ، فنسب الدين إليه، إذ كان عليه أنزل، فكذَّب به الأحزابُ. ثم نهاه جل ثناؤه عن ترك ما أنزل إليه واتباع الأحزاب، وتهدَّده على ذلك إنْ فعله فقال: (ولئن اتبعت) يا محمد (أهواءهم)، أهوَاء هؤُلاء الأحزاب ورِضَاهم ومحبتَهم (٢) وانتقلت من دينك إلى دينهم، ما لك من يَقيك من عَذاب الله إنْ عذّبك على اتباعك أهواءَهم، وما لك من ناصر ينصرك فيستنقذك من الله إن هو عاقبك، (٣) يقول: فاحذر أن تتّبع أهَواءهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: {وكذلك أنزلناه حكما عربيا} أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا،

شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد} [فصلت: ١١].

وقوله: {ولئن اتبعت أهواءهم} أي: آراءهم، {بعد ما جاءك من العلم} أي: من الله تعالى {ما لك من الله من ولي ولا واق} أي: من الله تعالى. وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا (١) سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أي وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا، وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو عربي، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا. وقيل نظم الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا، أي بلسان العرب، ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله، لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم." (ولئن اتبعت أهواءهم) " أي أهواء المشركين في عبادة ما دون الله، وفي التوجيه إلى غير الكعبة. (بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي) أي ناصر ينصرك. (ولا واق) يمنعك من عذابه، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد الأمة.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب حكما، عربيا أي: محكما متقنا، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع

وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون.

ولهذا توعد رسوله -مع أنه معصوم- ليمتن عليه بعصمته ولتكون أمته أسوته في الأحكام فقال: {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم، {مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ} يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، {وَلا وَاقٍ} يقيك من الأمر المكروه.

أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك يا رسول الله، وكانوا بشرًا كما أنك بشرٌ فقد كانت لهم أزواج، وكان لهم أيضًا ذرية، وما كان لرسول منهم أن يأتي بمعجزة من تلقاء نفسه، إنما يسأل الله ذلك فتأتي المعجزة من عند الله على الوجه الذي يشاؤه الله، وفي التوقيت الذي يريده الله، وبإذنه ﷻ.

أما قوله تعالى: ﴿ ﴾ فللعلماء فيه أقوال:

أحدها: لكل مدة من الزمن كتاب مكتوب فيه ما سيحدث في هذه المدة الزمنية.

والثاني: أن هنا تقديم وتأخير، والمعنى لكل كتاب من الكتب التي أنزلها الله ﷻ أجل ينتهي عنده ويأتي كتاب آخر من عند الله ينسخ بعض ما في الكتاب المتقدم من الأحكام إلى أن نزل القرآن ولا ناسخ له بل هو المهيمن على الكتب كلها، والله أعلم.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: (ولقد أرسلنا) ، يا محمد (رسلا من قبلك) إلى أمم قَدْ خَلَتْ من قبل أمتك، فجعلناهم بَشرًا مثلَك، لهم أزواج ينكحون، وذريةٌ أنْسَلوهم، (١) ولم نجعلهم ملائكةً لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، فنجعلَ الرسولَ إلى قومك من الملائكة مثلهم، ولكن أرسلنا إليهم بشرًا مثلهم، كما أرسلنا إلى من قبلهم من سائر الأمم بشرًا مثلهم= (وما كان لرسول أن يأتيَ بآية إلا بإذن الله) يقول تعالى ذكره: وما يقدِر رسولٌ أرسله الله إلى خلقه أنْ يأتي أمَّتَه بآية وعلامة، (٢) من تسيير الجبال، ونقل بَلْدةٍ من مكان إلى مكان آخر، وإحياء الموتى ونحوها من الآيات= (إلا بإذن الله) ، يقول: إلا بأمر الله الجبالَ بالسير، (٣) والأرضَ بالانتقال، والميتَ بأن يحيَا= (لكل أجل كتاب) ، يقول: لكلِّ أجلِ أمرٍ قضاه الله، كتابٌ قد كتبَه فهو عنده. (٤)

وقد قيل: معناه: لكل كتابٍ أنزله الله من السماء أجَلٌ.

وأورد بإسنادٍ ضعيف عن الضحاك في قوله: (لكلّ أجل كتاب) ، يقول: لكل كتاب ينزل من السماء أجل، فيمحُو الله من ذلك ما يشاءُ ويُثْبِت، وعنده أمُّ الكتاب. (٥)

قال أبو جعفر: وهذا على هذا القول نظيرُ قول الله: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) [سورة ق:١٩] ، وكان أبو بكر رحمه الله يقرؤه (٦) (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ) ، وذلك أن سَكْرة الموت تأتي بالحق والحق يأتي بها، فكذلك الأجل له كتاب وللكتاب أجَلٌ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: وكما أرسلناك، يا محمد، رسولا بشريا (٢) كذلك [قد] (٣) بعثنا المرسلين قبلك بشرا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجا وذرية، وقد قال [الله] (٤) تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي} [الكهف: ١١٠].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[١]: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَآكُلُ الدَّسَمَ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**".

وقال ابن كثير أيضًا:

وقوله: {وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله} أي: لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله، عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

{لكل أجل كتاب} أي: لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار، {ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير} [الحج: ٧٠] (١١).

وكان الضحاك بن مزاحم[٢] يقول في قوله: {لكل أجل كتاب} أي: لكل كتاب أجل يعني (١٢) لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا يمحو (١٣) ما يشاء منها ويثبت، يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

(١) البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) بنحوه.

(٢) وفي السند عند الطبري عن الضحاك ضعف، والله أعلم..

قوله تعالى: (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات- ما تقدم ذكره في هذه السورة- فأنزل [الله «٣»] ذلك فيهم، وظاهر الكلام حظر ومعناه النفي، لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه. (لكل أجل كتاب) أي لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله، قال الحسن. وقيل: فيه تقديم وتأخير، المعنى: لكل كتاب أجل، قال الفراء والضحاك، أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت، ووقت معلوم، نظيره." لكل نبإ مستقر" «١» [الأنعام: ٦٧] ، بين أن المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب. وقيل: المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقدر لا تقف عليه الملائكة.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية، كما كان لإخوانك المرسلين، فلأي شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك؛ إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم؟ وإن طلبوا منك آية اقترحوها فليس لك من الأمر شيء.

{وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ} والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه، {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجبا لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر مع أنه تعالى فعال لما يريد.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: لكل أجل من آجال الخَلق كتاب عند الله، قاله الحسن.

والثاني: أنه من المقدّم والمؤخّر، والمعنى: لكل كتاب ينزل من السماء أجل. قاله الضحاك والفراء.

والثالث: لكل أجل قدَّره الله ﷻ، ولكل أمر قضاه، كتاب أُثبت فيه، ولا تكون آية ولا غيرها إلا بأجل قد قضاه الله في كتاب، هذا معنى قول ابن جرير.

❁ ❁ ❁

مبحثٌ في المحو والإثبات

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن الآية متعلقة بما قبلها فقوله تعالى: ﴿﴾، متعلق بقوله تعالى: ﴿﴾، وقوله: ﴿﴾ من المقدم والمؤخر، بمعنى لكل كتاب أنزله الله على رسوله (للشرائع والأحكام التي فيه أجل) إلى أن يأتي كتاب آخر من عند اله فينسخ الله من الكتاب الأول ما يشاء بالكتاب الثاني، أو يتركه بلا نسخ،فمثلًا التوراة لها زمنٌ معين فإذا جاء الإنجيل نُسخ منها بعض الأحكام، وأثبتت أحكام كما هي عليه.

ويأتي القرآن بعد الإنجيل فينسخ بعض أحكام الإنجيل ويثبت أحكامًا أخر.

أما القرآن فلا كتاب من عند اله بعده.

فعلى هذا فقوله تعالى: ﴿﴾ من الكتب التي أنزلها على الرسل عليهم صلوات الله وسلامه.

الوجه الثاني: أن قوله تعالى: ﴿﴾ متعلق باللوح المحفوظ، يُغيِّر الله في

الأقدار التي قدرها ما يشاء ويثبت ما يشاء، وقد ورد عن عددٍ من السلف أنهم كانوا يقولون في دعائهم: اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيًّا فامحه واكتبني سعيدًا.

الوجه الثالث: كالوجه الثاني، لكن هناك أشياء في اللوح المحفوظ لا تتغير، وهي الشقاوة والسعادة، والحياة والموت، وما سواها يتغير أو يترك كما يشاء الله ﷻ.

الوجه الرابع: أن الكتاب كتابان، أحدهما: اللوح المحفوظ لا يتغير ولا يتبدل فيه شيء والآخر كتاب، قيل: بأيدي الملائكة يتغير فيه أمور، وتثبت فيه أمور كما يريد الله فكان البعض يقولون: إن حاصل ذلك أن الله يقول لملائكته إذا عمل عبدي حسنة كذا وكذا فزيدوه في الرزق كذا وكذا، أو في الأجل كذا وكذا، أو غير ذلك، وإلا فلا تزيدوه، ونحو ذلك، والله أعلم بما تنتهي إليه الأمور، وقد أثبت ما تنتهي إليه الأمور في اللوح المحفوظ.

الوجه الخامس: أن قوله تعالى: ﴿﴾ متعلق بالناسخ والمنسوخ اللذين في القرآن، فيترك الله بعض الآيات بلا نسخ وينسخ آيات أخر.

الوجه السادس: يمحو الله ﷻ من سيئات العبد ما يشاء بمغفرته وعفوه، ويترك سيئات آخرين يؤاخذهم بها.

الوجه السابع: يمحو الله من يشاء من الخلق بإماتته ويترك ما يشاء حيًّا.

الوجه الثامن: يمحو الله ما يشاء من آياته ويترك آيات أخر، أعني الآيات التي في الآفاق، كالليل، والنهار، والشمس، والقمر، قال تعالى: ﴿﴾.

الوجه التاسع: أن ذلك متعلق بأحوال العباد فمنهم من يعلم بطاعة الله ﷻ زمانًا ثم يُمحى هذا ويعمل بالمعصية فيموت عليها.

ومنهم من يعمل بمعصية الله ﷻ زمانًا ثم يُمحى هذا ويعمل بطاعة الله ﷻ.

الوجه العاشر: أن هذا متعلق بالأشخاص أثناء نومهم فيقبض الله أرواح بعضهم أثناء نومهم ويترك آخرين يرد إليهم أرواحهم.

هذا وثمَّ أقوال أخر، والوجوه الأُول قوية، والله أعلم بالصواب من تاويل كتابه.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فالمراد به والله أعلم أصل الكتاب وجملته. والله أعلم.

وإن كان لأم الكتاب معان أُخر قدمت ذكرها في مقدمة سورة الفاتحة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: يمحو الله ما يشاء من أمور عبادِه، فيغيّره، إلا الشقاء والسعادة، فإنهما لا يُغَيَّران.

وأورد بسندٍ ضعيف عن ابن عباس، في قوله: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) ، قال: يدبّر الله أمرَ العباد فيمحو ما يشاءُ، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت.

وبسندٍ صحيح عن مجاهد في قوله: (يمحو الله ما يشاء ويثبت) ، قال: إلا الحياة والموت والسعادة والشقاوة فإنَّهما لا يتغيَّران.

وأورد الطبري من وجه آخر عن منصور قال: سألت مجاهدًا فقلت: أرأيت دعاءَ أحدنا يقول:"اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه واجعله في السعداء"، فقال: حَسنٌ. ثم أتيته بعد ذلك بحَوْلٍ أو

MOSTAFALADWY.COM

أكثر من ذلك، فسألته عن ذلك، فقال: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) [سورة الدخان:٣، ٤] قال: يُقْضى في ليلة القدر ما يكون في السَّنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدِّم ما يشاء ويؤخر ما يشاء. فأما كتاب الشقاء والسعادة فهو ثابتٌ لا يُغَيَّر.

قال الطبري:

وقال آخرون: معنى ذلك: أنّ الله يمحو ما يشاء ويثبت من كتابٍ سوى أمّ الكتاب الذي لا يُغَيَّرُ منه شيء.

وأورد بسندٍ ضعيف عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)، قال: كتابان: كتابٌ يمحو منه ما يشاء ويثبت، وعنده أمّ الكتاب.

وبسندٍ صحيح عن عكرمة قال: الكتابُ كتابان، كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنه يمحو كل ما يشاء، ويثبت كل ما أراد.

وأورد بسندٍ صحيح عن شقيق (وهو أبو وائل شقيق بن سلمة) أنه كان يقول: «اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء، فامحنَا واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاءُ وتثبت وعندَك أمّ الكتاب».

ومن وجه آخر صحيح عن أبي وائل أيضًا قال: كان مما يكثر أن يدعو بهؤلاء الكلمات:"اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحنا واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب".

وأورد الطبري بسنده إلى أبي عثمان النَّهْديّ (والإسناد قابل للتحسين

ويتمم السقط الذي فيه ابن كثير)[١]، أن عمر بن الخطاب قال وهو يطوف بالبيت ويبكي: اللهم إن كنت كتبت علي شِقْوة أو ذنبًا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت. وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادةً ومغفرةً.

ونحوه بإسناد فيه مقال عن ابن مسعود.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنّ الله ينسخ ما يشاء من أحكام كِتَابه، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسَخُه.

وأورد بسندٍ ضعيف عن ابن عباس: (يمحو الله ما يشاء)، قال: من القرآن. يقول: يبدل الله ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله= (وعنده أم الكتاب)، يقول: وجملة ذلك عنده في أمّ الكتاب، الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت، كلُّ ذلك في كتاب.

وبسندٍ صحيح عن قتادة قوله: (يمحو الله ما يشاء ويثبت)، هي مثل قوله: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) [سورة البقرة:١٠٦]، وقوله: (وعنده أم الكتاب): أي جُملة الكتاب وأصله.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: (يمحو الله ما يشاء)، بما ينزل على الأنبياء، (ويثبت) ما يشاء مما ينزل على الأنبياء، قال: (وعنده أم الكتاب)، لا يغيَّر ولا يبدَّل.

وقال آخرون: معنى ذلك أنه يمحو من قد حان أجله، ويثبت من لم يجيء أجله إلى أجله.

---

(١) ففي السند سقط شيخ الطبري، وأوضحه ابن كثير إذ ساق الإسناد، وهو عمرو بن علي شيخ الطبري.

MOSTAFAALADWY.COM

وأورد بسندٍ صحيح عن الحسن (البصري) قال: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)، يقول: يمحو من جاء أجله فذهب، والمثبت الذي هو حيٌّ يجري إلى أجله.

وأورد بسندٍ ضعيف عن مجاهد قول الله: (يمحو الله ما يشاء ويثبت)، قالت قريش حين أنزل: (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ) [سورة الرعد:٣٨]: ما نراك، يا محمد تملك من شيء، ولقد فُرِغ من الأمر! فأنزلت هذه الآية تخويفًا ووعيدًا لهم: إنا إن شئنا أحدَثْنا له من أمرنا ما شئنا، ونُحْدِث في كل رمضان، فنمحو ونثبتُ ما نشاء من أرزاق الناس وَمصَائبهم، وما نعطيهم، وما نقسم لهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: ويغفر ما يشاء من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفر.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بتأويل الآية وأشبهُها بالصّواب، القولُ الذي ذكرناه عن الحسن ومجاهد، وذلك أن الله تعالى ذكره توعَّد المشركين الذين سألوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الآياتِ بالعقوبة، وتهدَّدهم بها، وقال لهم: (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ الله لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)، يعلمهم بذلك أن لقضائه فيهم أجلا مُثْبَتًا في كتاب، هم مؤخّرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل. ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل، يجيء الله بما شاء ممن قد دَنا أجله وانقطع رزقه، أو حان هلاكه أو اتضاعه من رفعة أو هلاك مالٍ، فيقضي ذلك في خلقه، فذلك مَحْوُه، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه وأكله، (١) فيتركه على ما هو عليه فلا يمحوه.

MOSTAFAALADWY.COM

وأورد أحاديث فيها مقال في هذا الصدد.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فأورد الطبري أيضًا أقوالًا منها معناه: وعنده الحلال والحرام.

ومنها معناه: وعنده جملة الكتاب وأصله، وأورد هذا بسندٍ صحيح عن قتادة.

ومنها بسندٍ فيه مقالٌ عن ابن عباس أنه سأل كعبًا عن "أم الكتاب" قال: علم الله ما هو خالقٌ وما خَلْقُه عاملون، فقال لعلمه: كُنْ كتابًا، فكان كتابًا.

قال الطبري: وقال آخرون: هو الذكر.

قال الطبري:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ من قال: "وعنده أصل الكتاب وجملته، وذلك أنه تعالى ذكره أخبر أنه يمحُو ما يشاء ويثبت ما يشاء، ثم عقَّب ذلك بقوله: (وعنده أم الكتاب)، فكان بيِّنًا أن معناه. وعنده أصل المثبّت منه والمَمحوّ، وجملتُه في كتاب لديه.

وأورد الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قراءتين في قوله تعالى: ﴿﴾ أحدهما: يُثبِّت، والأخرى يثبت مخففة فالأولى بالتشديد (تشديد الباء) بمعنى ويتركه ويقرِّه على حاله فلا يمحوه.

" يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب". وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لها: اللهم إن كان في بطنها جارية فأبدلها غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. وقد تقدم في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:" من سره أن يبسط له رزقه وينسأ له أثره «١» فليصل رحمه". ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال:" من أحب" فذكره بلفظه سواء، وفيه تأويلان: أحدهما- معنوي، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكأنه لم يمت. والآخر- يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ، والذي في علم الله ثابت لا تبدل له، كما قال:" يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب". وقيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:" من أحب أن يمد الله في عمره وأجله ويبسط له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه" كيف يزاد في العمر والأجل؟! فقال: قال الله عز وجل:" هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده" «٢» [الأنعام: ٢] . فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثاني- يعني المسمى عنده- من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله، فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ، ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البرزخ فإذا تحتم الأجل في علمه السابق امتنع الزيادة والنقصان، لقوله تعالى:" فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" «١» [الأعراف: ٣٤] فتوافق الخبر والآية، وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجل على ظاهر اللفظ، في اختيار حبر الأمة[1].

وذكر القرطبي أقوالًا في المحو والإثبات منها:

وقال الحسن:" يمحوا الله ما يشاء" من جاء أجله،" ويثبت" من لم يأت أجله. وقال الحسن: يمحو الآباء، ويثبت الأبناء. وعنه أيضا. ينسي الحفظة من الذنوب ولا ينسى. وقال السدي:" يمحوا الله ما يشاء" يعني: القمر،"

(١) ولم أقف على سندٍ صحيح لهذا الأثر.

ويثبت" يعني: الشمس، بيانه قوله:" فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة" «١» [الإسراء: ١٢] وقال الربيع بن أنس: هذا في الأرواح حالة النوم، يقبضها عند النوم، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه، ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه، بيانه قوله:" الله يتوفى الأنفس حين موتها" «٢» الآية [الزمر: ٤٢]. وقال علي بن أبي طالب يمحو الله ما يشاء من القرون، كقوله:" ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون" «٣» [يس: ٣١] ويثبت ما يشاء منها، كقوله:" ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين" «٤» [المؤمنون: ٣١] فيمحو قرنا، ويثبت قرنا. وقيل: هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله، فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب، فيمحوه الله من ديوان السيئات، ويثبته في ديوان الحسنات.

وقال القرطبي أيضًا:

" وعنده أم الكتاب" أصل ما كتب من الآجال وغيرها. وقيل: أم الكتاب اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير. وقد قيل: إنه يجري فيه التبديل. وقيل: إنما يجري في الجرائد الأخر. وسيل ابن عباس عن أم الكتاب فقال: علم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتابا، ولا تبديل في علم الله، وعنه أنه الذكر، دليله قوله تعالى:" ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر" «١» [الأنبياء: ١٠٥] وهذا يرجع معناه إلى الأول، وهو معنى قول كعب. قال كعب الأحبار: أم الكتاب علم الله تعالى بما خلق وبما هو خالق[(١)].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

(١) قلت (مصطفى) والإشكالية في هذه اليثار عدم التيقن من ثبوتها فالذي وقفت عليه من أسانيدها ضعيف، والله أعلم.

{يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ} من الأقدار {وَيُثْبِتُ} ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير لأن ذلك محال على الله، أن يقع في علمه نقص أو خلل ولهذا قال: {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابا ولمحوها أسبابا، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: «ويثبت» ساكنة الثاء خفيفة الباء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: «ويثِّبت» مشددة الباء مفتوحة الثاء. قال أبو علي: المعنى: ويثبِّته، فاستغنى بتعدية الأول من الفعلين عن تعدية الثاني.

واختلف المفسرون في المراد بالذي يمحو ويثبِت على ثمانية أقوال:

أحدها: أنه عامّ، في الرزق، والأجل، والسعادة. والشقاوة، وهذا مذهب عمر، وابن مسعود، وأبي وائل، والضحاك، وابن جريج.

والثاني: أنه الناسخ والمنسوخ، فيمحو المنسوخ، ويثبت الناسخ، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وقتادة، والقرظي، وابن زيد. وقال ابن قتيبة: «يمحو الله ما يشاء» أي: ينسخ من القرآن ما يشاء «ويثبت» أي: يدعه ثابتًا لا ينسخه، وهو المُحكَم.

والثالث: أنه يمحو ما يشاء، ويثبت، إلا الشقاوة والسعادة، والحياة والموت، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، ودليل هذا القول، ما روى مسلم في «صحيحه» (١) من حديث حذيفة بن أَسِيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا مضت على النطفة خمس وأربعون ليلة، يقول الملَك الموكَّل: أذَكر أم أنثى؟ فيقضي الله تعالى، ويكتب الملَك، فيقول: أشقي، أم سعيد؟ فيقضي الله، ويكتب الملَك، فيقول: عمله وأجله؟ فيقضي الله، ويكتب الملَك، ثم تطوى الصحيفة، فلا يزاد فيها ولا يُنقص منها**».

والرابع: يمحو ما يشاء ويثبت، إلا الشقاوة والسعادة لا يغيَّران، قاله مجاهد.

والخامس: يمحو من جاء أجله، ويُثبت من لم يجئ أجله، قاله الحسن.

والسادس: يمحو من ذنوب عباده ما يشاء فيغفرها، ويثبت ما يشاء فلا يغفرها، روي عن سعيد بن جبير.

والسابع: يمحو ما يشاء بالتوبة، ويثبت مكانها حسنات، قاله عكرمة.

والثامن: يمحو من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب، قاله الضحاك، وأبو صالح. وقال ابن السائب: القول كلُّه يُكتَب، حتى إذا كان في يوم الخميس، طُرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا

(١) مسلم ٤/ ٢٠٣٧ ورواية المصنف هنا بالمعنى.

MOSTAFALADY.COM

عقاب، مثل قولك: أكلتُ، شربت، دخلت، خرجت، ونحوه، وهو صادق، ويُثبت ما فيه الثواب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قال الزجاج: أصل الكتاب. قال المفسرون: وهو اللوح المحفوظ الذي أُثبت فيه ما يكون ويحدث.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: وقد نرينك يا رسول الله ما نعد هؤلاء الكفار من العذاب، فيحل بهم العذاب وأنت حيٌّ وتقر عينك ويشفى صدرك بالانتقام منهم فنحن قادرون على ذلك، فإذا فعلنا بهم ذلك أو توفيناك قبل أن ترى ذلك فيهم فإن الذي عليك هو البلاغ، وقد أديته، أما حسابهم فعلى الله ﷻ، هو جامعهم ليوم القيامة يحاسب كلًّا على ما صنع.

والآية كقوله تعالى: ﴿﴾، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وإما نرينك، يا محمد في حياتك بعضَ الذي نعدُ هؤلاء المشركين بالله من العقاب على كفرهم = أو نتوفيَنَّكَ قبل أن نُريَك ذلك، فإنما عليك أن تنتهِيَ إلى طاعة ربك فيما أمرك به من تبليغهم رسالتَه، لا طلبَ صلاحِهم ولا فسادِهم، وعلينا محاسبتهم، فمجازاتهم بأعمالهم، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله: {وإن ما نرينك} يا محمد {بعض الذي نعدهم}

MOSTAFAALBADAWY.COM

أي: نعد أعداءك من الخزي (١) والنكال في الدنيا، {أو نتوفينك} [أي] (٢) قبل ذلك، {فإنما عليك البلاغ} أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد بلغت (٣) ما أمرت به، {وعلينا الحساب} أي: حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: {فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم} [الغاشية: ٢١ -٢٦].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم) " ما" زائدة، والتقدير: وإن نرينك بعض الذي نعدهم، أي من العذاب لقوله:" لهم عذاب في الحياة الدنيا" [الرعد: ٣٤] وقوله:" ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة" [الرعد: ٣١] أي إن أريناك بعض ما وعدناهم (أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ) فليس عليك إلا البلاغ، أي التبليغ، (وعلينا الحساب) أي الجزاء والعقوبة.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{إِمَا نُرِيَنَّكَ} إياه في الدنيا فتقر بذلك عينك، {أو نتوفينك} قبل إصابتهم فليس ذلك شغلا لك {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ} والتبيين للخلق.

{وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} فنحاسب الخلق على ما قاموا به، مما عليهم، وضيعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: أولم يرهؤلاء المكذبون بالبعث الجاحدون

MOSTAFAADAWY.COM

وحدانية الله ﷻ، الذين اتخذوا مع الله إلهًا آخر أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها، وفي نقصانها من أطرافها.

أقوال للعلماء:

أحدها: أن الناس يسلمون قومًا بعد قومٍ فيضيق الخناق على أهل الشرك بمكة، وذلك بالفتوحات التي يفتحها الله على رسوله ﷺ والبلاد التي تفتح ويدخل أهلها الإسلام، فيومًا بعد يومٍ يضيق الخناق على كفار مكة ويتحول صديقهم الكافر إلى وليٍّ حميم لرسول الله ﷺ بعد إسلامه.

الوجه الثاني: أن خرابًا يحلُّ ببعض البلاد يوم بعد يوم فالمعنى، أولم يروا متعقلين ما يحدث حولهم من تخريب بعض البلاد وتدميرها فيأخذونه من ذلك عبرة ويخشون أن يحلَّ بهم ما يحل بهؤلاء.

الوجه الثالث: أن المراد بإنقاص الأرض من أطرافها نقصان البركة والثمار.

الوجه الرابع: أن إنقاص الأرض من أطرافها موت العلماء والفقهاء.

وثمَّ وجوهٌ أُخر في هذا المعنى.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فمعناه: والله يقضي ما يشاء من أقضيته ويفعل بالعباد والخلق ما يشاء وما يريد، لا راد لقضائه ولا دافع لمراده وهو سريع الحساب، يحاسب هؤلاء الأقوام ويحص عليهم أقوالهم وأعمالهم ويجازيهم عليها.

فلا يستعجل هؤلاء الكفار العذاب فإنه آت وأعمالهم مُحصاة عليهم وكذا أقوالهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

MOSTAFAALADWY.COM

فقال بعضهم: معناه: أولم ير هؤلاء المشركون مِنْ أهل مكة الذين يسألون محمدًا الآيات، أنا نأتي الأرض فنفتَحُها له أرضًا بعد أرض حَوَالَيْ أرضهم؟ أفلا يخافون أن نفتح لَهُ أرضَهم كما فتحنا له غيرها؟

وأورد بإسنادٍ صحيح بمجموع طرقه عن ابن عباس في قوله: (أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) ، قال: أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض؟

وقال آخرون: بل معناه: أولم يروا أنا نأتي الأرض فنخرِّبها، أو لا يَخَافون أن نفعل بهم وبأرضهم مثل ذلك فنهلكهم ونخرِّب أرضهم؟

وأخرج بسندٍ صحيح عن ابن عباس في قوله: (أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) ، قال: أولم يروا إلى القرية تخربُ حتى يكون العُمْران في ناحية؟

وقال آخرون: بل معناه: ننقص من بَرَكتها وثَمرتها وأهلِها بالموت.

وقال آخرون: معناه: أنا نأتي الأرض ننقصها من أهلها، فنتطرَّفهم بأخذهم بالموت.

وقال آخرون: (ننقُصها من أطرافها) بذهاب فُقَهائها وخِيارها.

وأورد بسنده إلى ابن عباس قال: ذهابُ علمائها وفقهائِها وخيار أهلِها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قولُ من قال: (أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) ، بظهور المسلمين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عليها وقَهْرِهم أهلها، أفلا يعتبرون بذلك فيخافون ظُهورَهم على أرْضِهم وقَهْرَهم إياهم؟ وذلك أن الله توعَّد الذين سألوا رسولَه الآيات من مشركي قومه بقوله: (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

البَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) ، ثم وبَّخهم تعالى ذكره بسوء اعتبارهم ما يعاينون من فعل الله بضُرَبائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات، فقال: (أولم يرَوْا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) بقهر أهلها، والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها، (١) وهم لا يعتبرون بما يَرَوْن من ذلك.

وأما قوله: (والله يحكُم لا مُعَقّب لحكمه) ، يقول: والله هو الذي يحكم فيَنْفُذُ حكمُه، ويَقْضي فيَمْضِي قضاؤه، وإذا جاء هؤلاء المشركين بالله من أهل مكة حُكْم الله وقضاؤُه لم يستطيعوا رَدَّهَ. ويعني بقوله: (لا معقّب لحكمه) : لا راد لحكمه،

"والمعقب"، في كلام العرب، هو الذي يكرُّ على الشيء. (٢)

وقوله: (وهو سريع الحساب) ، يقول: والله سريع الحساب يُحْصي أعمال هؤلاء المشركين، لا يخفى عليه شيء، وهو من وراءِ جزائهم عليها.

واختار ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: ﴿﴾ أن المراد ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال متوعدا للمكذبين {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} قيل بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال.

والظاهر -والله أعلم- أن المراد بذلك أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويجتاحها، ويحل القوارع بأطرافها، تنبيها لهم قبل أن يجتاحهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد، ولهذا قال: {وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ} ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي.

MOSTAFAABADWY.COM

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها، بخلاف حكم غيره فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه، {وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} أي: فلا يستعجلوا بالعذاب فإن كل ما هو آت، فهو قريب.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وقد كاد الكفار الذين كانوا قبل كفار قريش لرسلهم، ومكروا برسلهم لقتلهم أو لإخراجهم من بلادهم، أو لسجنهم وحبسهم قال تعالى: ﴿﴾.

مكر الكفار برسلهم وحاولهم قتلهم، ولكن هم يكيدون ويمكرون، والله يكيد لهم كما قال تعالى: ﴿﴾، وبلا شك فمن كاد الله له قصمه الله، ومن أراد الله إذلاله فلا مُعزَّ له ولا ناصر، ولا عاصم له من أمر الله فالتدبير كله لله، والله يعلم ما تكسب الأنفس من أعمال من حسنات وسيئات، وسيعلم أهل الكفر عن قريبٍ لمن ستكون العاقبة الحسنة في الآخرة. ولمن ستكون العاقبة السيئة في الدنيا والآخرة إن العاقبة الحسنة في الآخرة لأهل الإيمان وهي الجنة.

والعاقبة السيئة في الدار الآخرة، وهي النار والعياذ بالله لأهل الكفر والشقاوة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قد مكر الذين من قَبْل هؤلاء المشركين من قُرَيشٍ من

MOSTAFAALADW.COM

الأمم التي سلفت بأنبياء الله ورُسله (فلله المكر جميعًا) ، يقول: فلله أسبابُ المكر جميعًا، وبيده وإليه، لا يضرُّ مكرُ من مَكَر منهم أحدًا إلا من أراد ضرَّه به، يقول: فلم يضرَّ الماكرون بمكرهم إلا من شاء الله أن يضرَّه ذلك، وإنما ضرُّوا به أنفسهم لأنهم أسخطوا ربَّهم بذلك على أنفسهم حتى أهلكهم، ونجَّى رُسُلَه: يقول: فكذلك هؤلاء المشركون من قريش يمكرون بك، يا محمد، والله منجّيك من مكرهم، ومُلْحِقٌ ضُرَّ مكرهم بهم دونك.

وقوله: (يعلم ما تكسب كلّ نفس) ، يقول: يعلم ربك، يا محمد ما يعمل هؤلاء المشركون من قومك، وما يسعون فيه من المكر بك، ويعلم جميعَ أعمال الخلق كلهم، لا يخفى عليه شيء منها (٢) = (وسيعلَم الكفار لمن عقبى الدار) ، يقول: وسيعلمون إذا قَدموا على ربهم يوم القيامة لمن عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار، ويدخلُ المؤمنون بالله ورسوله الجَنَّة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول: {وقد مكر الذين من قبلهم} برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} [الأنفال: ٣٠] وقال تعالى: {ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا} الآية [النمل: ٥٠ -٥٢] .

وقوله: {يعلم ما تكسب كل نفس} أي: إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزي كل عامل بعمله.

{وسيعلم الكافر} وقرئ: {الكفار} {لمن عقبى الدار} أي: لمن تكون

الدائرة والعاقبة، لهم أو لأتباع الرسل؟ كلا بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (وقد مكر الذين من قبلهم) أي من قبل مشركي مكة، مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم. (فلله المكر جميعا) أي هو مخلوق له مكر الماكرين، فلا يضر إلا بإذنه. وقيل: فلله خير المكر، أي يجازيهم به. (يعلم ما تكسب كل نفس) من خير وشر، فيجازي عليه. (وسيعلم الكفار) كذا قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. الباقون" الكفار" على الجمع. وقيل: عني [به «١»] أبو جهل. (لمن عقبى الدار) أي عاقبة دار الدنيا ثوابا وعقابا، أو لمن الثواب والعقاب في الدار الآخرة، وهذا تهديد ووعيد.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: {وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} برسلهم وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم ولم يصنعوا شيئا فإنهم يحاربون الله ويبارزونه، {فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا} أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره،

فإذا كانوا يمكرون بدينه فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم، فإن الله {يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ} أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة.

والمكر لا بد أن يكون من كسبها فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرا يضر الحق وأهله ويفيدهم شيئا، {وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ} أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين لا للكفر وأهله.

❊ ❊ ❊

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ...﴾ سبب نزول؟

ج: لم أقفلها على سبب نزول بسندٍ صحيح.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - ويقول أهل الكفر من مشركي مكة وغيرهم من أهل الشرك، يقولون لك: يا رسول الله لست مرسلًا من عند الله، فقل لهؤلاء لمكذبين برسالتك كفى بالله شهيدًا بيني وبينكم يشهد عليَّ ويشهد عليكم، يشهد لي باني رسول من عنده ﷻ، ويشهد عليكم بشرككم وبتكذيبكم.

وكذا يشهد لي بأني رسولٌ من عند الله، مَن عنده علم الكتاب، قيل: المراد بهم المؤمنون من أهل الكتاب شهدوا للرسول بالرسالة إذ كتبهم أخبرت بذلك، كقوله تعالى: ﴿﴾، وكما قال تعالى: ﴿﴾.

وكما قال تعالى: ﴿﴾ إلى غير ذلك.

فالقول الأول في تفسير: ﴿﴾ أي: والذين آمنوا من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري وعدي بن حاتم الطائي وغيرهم.

والقول الثاني: أن الذي عنده علم الكتاب هو الله ﷻ.

القول الثالث: أن الذي عنده علمٌ من الكتاب جبريل عليه السلام.

القول الرابع: أن الذي عنده علمٌ من الكتاب عليٌّ رضي الله عنه.

MOSTAFALABIB.COM

وأظهر الأقوال أن المراد: علماء أهل الكتاب الذين آمنوا، ولا يمنع أن يدخل معهم غيرهم.

أما القول بأن الذي عنده علم الكتاب هو الله، فلا شك أن الله يعلم، وعنده علم الكتاب، ولكن المراد بالآية بشرٌ، ﴿﴾ ثم العطف بقوله: ﴿﴾ فهذا يدل – في الغالب على التغاير، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره ويقول الذين كفروا بالله من قومك يا محمد لست مرسلا! تكذيبا منهم لك، وجحودًا لنبوّتك، (١) فقل لهم إذا قالوا ذلك: (كفى بالله) ، يقول: قل حَسْبي الله (٢) (شهيدًا) ، يعني شاهدًا (٣) = (بيني وبينكم) ، عليّ وعليكم، بصدقي وكذبكم= (ومن عنده علمُ الكتاب)

فـ"مَنْ" إذا قرئ كذلك في موضع خفضٍ عطفًا به على اسم الله، وكذلك قرأته قَرَأَة الأمصار (١) بمعنى: والذين عندهم علم الكتاب أي الكتب التي نزلت قبلَ القرآن كالتوراة والإنجيل. وعلى هذه القراءة فسَّر ذلك المفسِّرون.

واورد الطبري بعض الأقوال في تعيين الذي عنده علم الكتاب.

فقال بعضهم: هو عبد الله بن سلام.

وقال آخرون: هو رجل من الإنس.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا) ، قال: قول مشركي قريش: (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) ، أناس من أهل الكتاب كانوا يشهدون بالحقّ ويقرُّون به، ويعلمون أن محمدًا رسول الله، كما يُحدَّث أن منهم عبد الله بن سَلام.

وفي رواية عن قتادة: كان منهم عبدُ الله بن سَلام، وسَلْمَان الفارسي،

وتميمٌ الدَّاريّ.

وأورد الطبري أقوالًا بنيت على قراءة (**مِن عنده علم الكتاب**) بكسر الميم في مِن، والمعنى ومن عند الله يتأتى العلم بالكتاب، وأورد حديثًا بذلك عن رسول الله ﷺ وضعَّفه الطبري بقوله ليس له أصل عند الثقات من أصحاب الزهري.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإذْ كان ذلك كذلك وكانت قرأة الأمصار من أهل الحجاز والشأم والعراق على القراءة الأخرى، وهي: (ومن عنده علم الكتاب) ، كان التأويل الذي على المعنى الذي عليه قرأة الأمصار أولى بالصواب ممّا خالفه، (١) إذ كانت القراءة بما هم عليه مجمعون أحقّ بالصواب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول: ويكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: {لست مرسلا} أي: ما أرسلك الله، {قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم} أي: حسبي الله، وهو الشاهد علي وعليكم، شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان.

وقال في (من عنده علم الكتاب):

والصحيح في هذا: أن {ومن عنده} اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل} الآية

MOSTAFALABIB.COM

[الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] وقال تعالى: {أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل} الآية: [الشعراء: ١٩٧] . وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة. وقد ورد في حديث الأحبار، عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلا} أي: يكذبونك ويكذبون ما أرسلت به، {قُلْ} لهم -إن طلبوا على ذلك شهيدا: {كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} وشهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فبما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يثبت به رسالته.

وأما فعله فلأن الله تعالى أيد رسوله ونصره نصرا خارجا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.

وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط وحل له ماله ودمه والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة.

{وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول من آمن واتبع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم

ومعرفتهم والله أعلم.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فيه سبعة أقوال:

أحدها: أنهم علماء اليهود والنصارى، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثاني: أنه عبد الله بن سلام، قاله الحسن، ومجاهد، وعِكرمة، وابن زيد، وابن السائب، ومُقاتل.

والثالث: أنهم قوم من أهل الكتاب كانوا يشهدون بالحق، منهم عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداريّ، قاله قتادة.

والرابع: أنه جبريل عليه السلام، قاله سعيد بن جُبير.

والخامس: أنه علي بن أبي طالب، قاله ابن الحنفية.

والسادس: أنه بنيامين، قاله شمر.

والسابع: أنه الله تعالى، روي عن الحسن، ومجاهد، واختاره الزجاج

تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة الرعد.

❁ ❁ ❁

MOSTAFALADAWY.COM